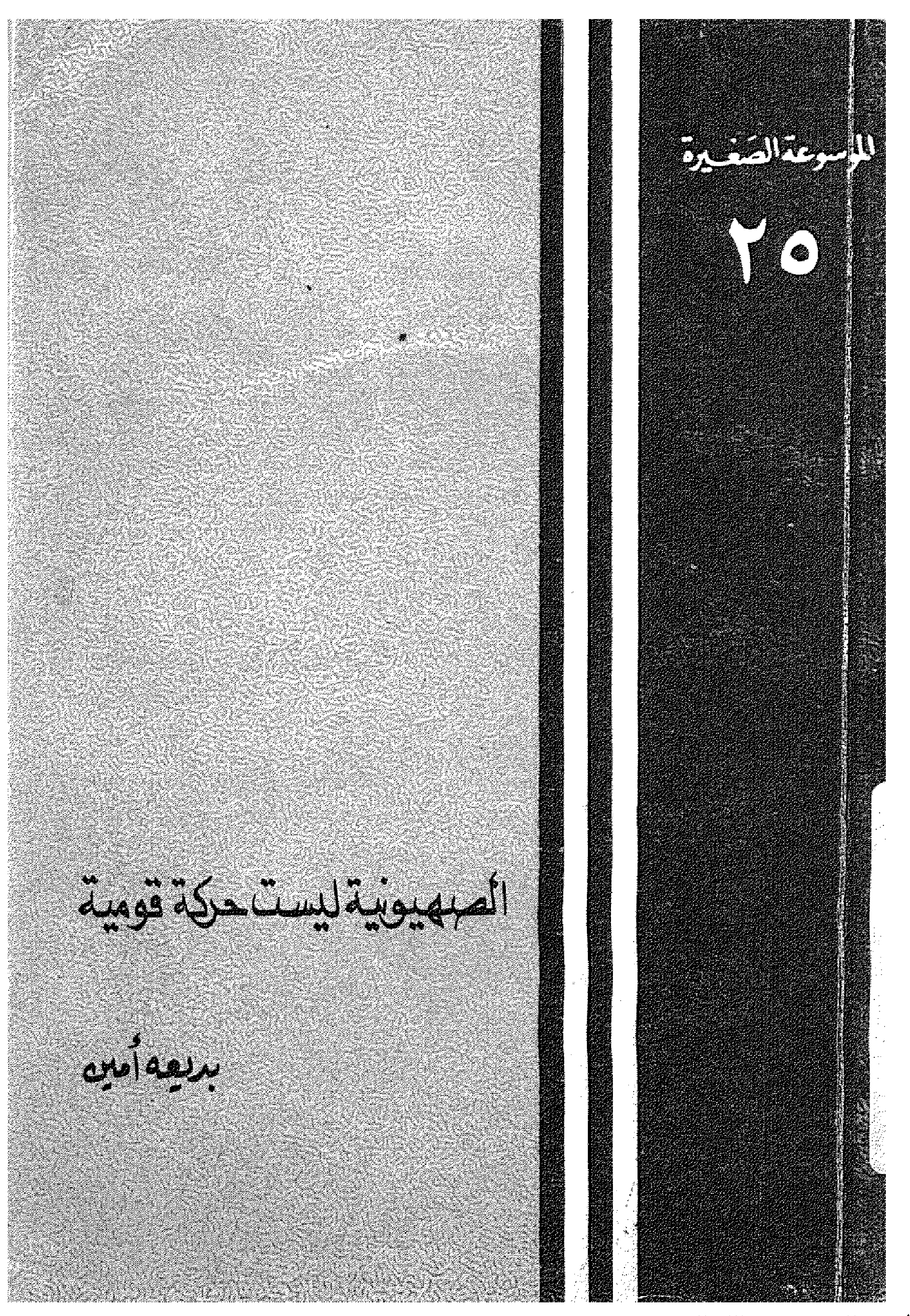

الموسوعة الصغيرة
٢٥
الصهيونية ليست حركة قومية
بديعة أمين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الموسوعة الصغيرة

٢٥

الصهيونية ليست حركة قومية

بديعة أمين



منشورات وزارة الثقافة والفنون

الجمهورية العراقية ١٩٧٨


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

مقدمـــة

موضوعة هذا البحث التي تستهدف تفنيد مقولة ان الحركة الصهيونية حركة قومية ، سبق لي ان تناولتها في بعض مما نشرت حول المشكلة اليهودية والصهيونية والقضية الفلسطينية . غير انه بالرغم من المحاولات السابقة التي كنت أسعى مـــن خلال القيام بها الى البرهنة على خطأ تلك المقولة ، فـــان احساساً مقلقاً غالباً ماكان يمتلكني ، هو ان نقيض هذه المقولة ــ عدم كونها حركة قومية ــ لم يكن قد تبلور لدي بشكل أستطيع ان اشعر معه ان بحث هذه المسألة ودراستها دراسة علمية موضوعية قد استنفذ من كل الوجوه والجوانب . هذا الاحساس بكون المحاولة غير مكتملة الجوانب كان نتيجـــة طبيعية لعدم توفر الكثير من المصادر التي تتطلبها محاولة اثبات نقيض المقولة السائدة .

حقاً .. ان هناك اعتقاداً عاماً في الوطن العربي بأن الحركة الصهيونية حركة إستعمارية وان الكيان الاســـرائيلي ما هو الا امتداد متـــأخر للظاهـــرة الاستعمارية ، وقاعدة استعماريـــة متقدمـــة في المنطقة . غير ان هناك في الوقت عينه ، وبخاصة في الاوساط الفكرية والسياسية العالميـــة ، اعتقاداً سائداً يعبر عن قناعة راسخة بان الصهيونية حركة

قومية وان الدولة الاسرائيلية انماهي وجود مادي متبلور للحركة « القومية اليهودية » . وقد ساعد هذا الاعتقاد ، خلال المائة عام الماضية ، بل وحتى في الوقت الحاضر ، على ان تفلح الحركة الصهيونية في كسب تأييد الدول الكبرى وتبنيها للمشروع الصهيوني ، وكذلك في استقطاب تأييد الرأي العام العالمي ، بما في ذلك اليسار التقدمي المعاصر ، حول اقامة دولة يهودية في فلسطين .

ان ما يؤسف له ، ان طرح هذه المقولة كان قد جرى بدرجة من القوة والاتساع بحيث انه أفلح في طمس ما يمكن ان يثبت العكس ، او ان اثبات نقيض تلك المقولة لم يجر ـ حسبما اعلم ـ بشكل علمي يستند الى اسانيد ومعطيات علمية يمكن الركون اليها ؛ أو انه غالباً ما كان يكتفى بالقول بان الصهيونية حركة استعمارية دون محاولة تفنيد مقولة انها حركة قومية ، وطرح نقيضها على الرأي العام العالمي بهدف اقناعه بخطأ ذلك الاعتقاد ومن ثم ، وقف تأييده للحركة الصهيونية ودولة اسرائيل .

ان قطاعات واسعة من الرأي العام العالمي ما تزال مقتنعة بصحة الحركة الصهيونية و « حق » اليهود في اقامة دولة لهم في فلسطين ؛ دون ان يخطر ببال تلك القطاعات ان الوجه الاخر لاقامة

مثل هذه الدولة في « وطن الآخرين » يعني تماماً تحويل ذلك الوطن الى مستعمرة لاتختلف بشيء عن روديسيا وجنوب افريقيا . والامر الذي يثير الاستغراب ان نفس الرأي العام العالمي الذي يعارض الوجود الاستعماري في هذين البلدين ، يتقبل كل تبريرات اسرائيل لسياستها التوسعية الاستعمارية ، وحروبها العدوانية وتشريدها للسكان الاصليين لفلسطين !

انني اعتقد اعتقاداً جازماً بان جزء هاماً من نضالنا ضد الصهيونية والوجود الاسرائيلي الاستعماري ، يكمن في وقف تأييد الرأي العام العالمي للصهيونية واسرائيل ، نظراً الى ان هذه تستند استناداً يكاد يكون كلياً الى ما تلقاه من تأييد ودعم رسمي من قبل عديد من الدول ، وغير رسمي من جانب الرأي العام العالمي . ولايتم وقف هذا التأييد بمجرد تكرار ان الصهيونية حركة استعمارية وان اسرائيل قاعدة استعمارية ، دون محاولة زعزعة قناعة الرأي العام العالمي الراسخة بان : الاولى حركة قومية وان الثانية دولة قومية ، وان كلا المسألتين تدخلان في نطاق الحتمية التاريخية وانهما بالتالي ، محصلة طبيعية لحركة التطور التاريخي ! اننا لانستطيع ان نثير شكوك الراي العام العالمي في قناعاته الاولية العميقة ، دون

ان نقدم له بدائل تستند الى بحث علمي وموضوعي يقوم على ادلة ووقائع واسانيد مادية تاريخية .

من هذا المنطلق .. ومن الاحساس بان محاولاتي السابقة في هذا المجال ، لم تكن مكتملة .. عدت الى الموضوع ثانية بعد ان توفرت لدى مصادر جديدة ، وجدت انها تستطيع ان تسد ثغرة بينة في تلك المحاولات .

انني آمل ان يكون بمقدوري ان اسد نقصاً طالما كان يحتل في ذهني زاوية مؤرقة . وان وقف مسعاي ، هذه المره أيضاً ، دون ما اطمح اليه ، فانني آمل ان تجد هده المسألة من يرغب ويستطيع ان يلقي مزيداً من الضوء على واحدة من اشد المسائل المتعلقة بالصهيونية تعقيداً ـ مسألة ان الصهيونية ليست ـ كما هو شائع ـ حركة قومية.

بديعة أمين

ماهية الحركة الصهيونية

ثمة مسألة يبدو أننا لم نعرها ما تستحق من اهتمام برغم انها على قسط كبير من الاهمية ، أو اننا كنا حتى الوقت الحاضر ، غالباً ما نكتفي ، لفهمها ومعالجتها ، براحة اللجوء الى أسهل التفسيرات أو ما يبدو انه أقرب الى المنطق المفترض ، والتحليل العلمي المفترض ، من اية تعليلات اخرى . وأقول المفترض نظراً الى انه لا يستند الى كل الحقائق المادية والمقومات الاصلية للقضية موضوع البحث ، وانما يرتكز الى جانب معين من الحقائق المادية الحسية حسب ؛ في حين ان أي تحليل علمي يضع نصب عينه هدف الوصول الى نتائج صحيحة ومقبولة ، لايرقاها شك ولا تنالها نقيصة ، لابد من ان يستند الى مجمل ما هناك من حقائق مادية فعلية ذات علاقة بالموضوع، والى مجمل الظروف التي تكتنف ذلك الموضوع ، والتي يمكن ان تمارس تأثيرات لايمكن اغفالها في الوصول الى نتائج نهائية متكاملة ، وخاصة اذا ما كانت القضية موضوع البحث واقعة ضمن اطار تاريخي محدد ، ينتمي الى زمن مضى ، وتتحكم به ظروف مادية معينه تشكل السمة الاساسية لتلك المرحلة التاريخية . تلك المسألة هي ما اذا

كانت الحركة الصهيونية حركة قومية وتعبيراً ايديولوجياً عن المصالح « القومية » للطبقة البورجوازية اليهودية ، مما يرشحها بالتالي لأن تكون واحدة من الحركات القومية في التاريخ الحديث ،ويمنح بروزها مبرراً شرعياً ويسبغ عليه حتمية تاريخية تجعل نشوء تلك الحركة ونموها وتطورها ونضالها مسألة لابد منها من حيث انها مشروطة بحركة التاريخ .

قد يبدو ان الحديث عما اذا كانت الحركة الصهيونية حركة قومية أم لا ، وما اذا كانت تعبيراً ايديولوجياً عن مصالح البورجوازية اليهودية، حديث متأخر جاء بعد فوات الاوان . فالدولة الاسرائيلية قد وجدت ، سواء كانت ممثلة لقومية ما أم لم تكن . غير ان المسألة ليست كذلك ، باعتقادي . ان محاولة تعرية حقيقة الحركة الصهيونية والوجود الاسرائيلي بوصفه قاعدة استعمارية قبل اي شيء اخر ، وكشف عمليات التزييف الصهيونية التي ساهمت ، طيلة المائة عام الماضية ، في حمل الراي العام العالمي على تأييد قيام دولة اسرائيل لتكون ملجأ قومياً لليهود ، تظل محتفظه بقيمتها التاريخية . طالما كنا مقتنعين بكوننا مدافعين عن قضية عادلة ، وطالما كنا مقنعين بان الحركة الاستعمارية ، وبضمنها الحركة

الصهيونية ، انما هي تيار رجعي يسير باتجـــاه معاكس لحركة التطور التاريخي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان الحكم على طبيعة ودوافع حركة ما ، لايمكن ان يتم في ضوء ما قد يحدث من تحولات او احداث في الجانب التطبيقي من برنامج واهداف تلك الحركة ، بفعل الظرف الزماني ، او نتيجـة للتحولات او المتغيرات التي تمليهـا حركة التاريخ ؛ حيث ان اية تحولات تطرأ في زمن لاحق ، لايمكن ان تغير واقع وحقيقة الدوافع الاساسيـة لتلك الحركة ، وبالتالي ، لايمكن ان تمارس ايمـا تأثير في سمات وخصائص وطبيعة واهداف الحركة المعنية . وعليه لابد ان يستند تقويم تلك الحركة الى المقومات والعناصر الاساسية المكونه لها اولا ، والى مميزات وسمات الاطار التاريخي الذي تبرز فيــه ثانيـاً ، والظروف العينيـة التي أدت الى بروزها ، ثالثا . كما انه لايجوز بحال من الاحوال الاكتفاء بظواهر جانبية او بسمات ثانوية قد تبرز في المرحلة التي تفرز في ظلها الحركة المعنية ، وانما ينبغي ان يتم التقويم في ضوء الخصائص والميزات الاساسية لتلك المرحلة . على ان هذا لايعنى ان التطورات والاحداث التي قد تستجد في فترات زمنية لاحقة يجب ان تهمل كلياً ، وانما لابد من الاستفادة منها ايضاً في هذا المجال .

هذا من ناحية . ومن ناحية اخرى ، فـان محاولة القاء اضواء جديده تضيء الجوانب المعتمة من هذه الحركة للكشف عن حقيقتها بصورة علمية تبدو الان اكثر الحاحاً في ضوء التجربة الفعلية التي خاضتها الحركة الصهيونية بانشاء « دولة اسرائيل » . أضف لهذا ان معرفة حقيقة ما نناضل ضده تنطوي على جانب كبير من الاهمية ، من حيث ان تلك المعرفه لاتسهم في تحديد وتوجيه مسار نضالنا حسب ، وانما يمكن ايضاً ان توفر لنا اساساً مادياً لتعريف ومن‌ثم كسب الرأي العام العالمي الذي مازال يقف الى جانب اسرائيل والصهيونية عموماً ، بالرغم من عدالة قضيتنا وشرعية نضالنا .

لقد جرت ، وخاصة ما بعد الحرب العالمية الثانية وقيام الدولة الاسرائيلية ، وفي خضم الحروب والعمليات العدوانية التي ما انفكت تلجأ اليها اسرائيل منذ قيامها ، ضد الاقطار العربية ، محاولات عديدة لدراسةوتحليل الحركة الصهيونية ودوافعها من قبل العديد من الكتاب الغربيين والماركسيين وممثلي اليسار في مختلف البلدان ، وكذلك من قبل عدد من الباحثين العرب . وبرغم الاختلافات الجذرية التي تنطوي عليها المنطلقات المبدئية والنظريات الفلسفية التي تحدد وجهات

نظر اولئك الكتاب من بورجوازيين مثاليين او ماديين ماركسيين عند تحديد الدوافع والأطر العامة لأيما حركة تاريخية ، وبالتالي تعيين هويتها واتجاهاتها واهدافها ، فان هناك ما يقرب من الاجماع على اعتبار الحركة الصهيونية ، حركة قومية . اضف لذلك ، ان الكتاب والباحثين الماركسيين واليساريين عموماً يعتبرونها تعبيراً ايديولوجياً عن الطبقة البورجوازية اليهودية . ولعل التحديد الصريح الوارد في « اعلان بلفور » « وطن قومي » ، يمكن ان يمثل خلاصة ما توصل اليه الفكر البورجوازي الاوربي بصدد تعيين هوية هذه الحركة ، على ان لاننسى ان ذلك الفكر ، حين يقرر موقفاً ما ازاء اية قضية ، انما يفعل ذلك انطلاقاً من مصالحه الخاصة ومن الدوافع الاساسية التي تقرر اتجاهاته وبالتالي موافقته أو رفضه لتلك القضية . وموقف الفكر البورجوازي الاستعماري من الحركة الصهيونية لايشذ عن هذه القاعدة .

ومن هنا ، فان اعتبار الحركة الصهيونية على انها حركة قومية ، هدفها إقامة وطن قومي لليهود، في ظروف بلوغ النظام الراسمالي ذروة مرحلة التوسع الامبريالي في اواخر القرن الماضي ، تحت ستار التظاهر بان ذلك قد جاء نتيجة لدوافع

انسانية وبتأثير من الفكر المسيحي والترابط الوثيق بين الثقافتين المسيحيــة واليهوديــة ، لايمكن ان يخفى حقيقــة ان « ... فكرة توطين اليهــود في فلسطين كانت » كما قال سير لورانس اوليفانت (Lawrence Oliphant) الصهيونــي البريطانــي الاممي ، « ترتبط بالحاجة الى ضمان تغلغــل بريطانيا السياسي والاقتصادي في فلسطين . »(١)

ولابد ان نلاحظ هنا أن تحديد هوية الحركة الصهيونية في « اعلان بلفور » ، قدأشر منذ البداية، المنطلق والاتجــاه لأيــة محاولة تســتهدف بحث وتحليل الحركه الصهيونية على صعيد الفكر الغربي وكمثال على ذلك ما يقوله ريتشارد كروسمان ، الاشتراكي البريطاني ، في كتابه المعنون (أمة تولد من جديد) [لاحظ استخدامه لتعبير « أمة »] : « ... ان من السخف التظاهر بأن عرب اسرائيل يشعرون بانهم مواطنون متساوون في هذه الدولة اليهودية القومية . »(٢)

---

(١) جانســن . جي . ، اج . ، الصهيونيــة ، اســرائيل والقومية الاسيوية ، مركز الدراسات الفلسطينيــة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص / ١٠٨ . (النسخة الانكليزية) .

(٢) Crossman. Richard, A Nation Reborn Hamish Hamilton, London, 1960, P. 95.

وبحثاً عن تفسير مقنع لماهية الحركة الصهيونية ، يميل الكتاب والباحثون الماركسيون واليساريون عموماً الى دراسة وتحليل مسألة بروز هذه الحركة ، من منطلقات الفهم الماركسي للمسألة القومية وحركة الاحداث التاريخية والتطور الدايلكتيكي للمجتمع البشري . وبالرغم من حقيقة ان اية دراسة موضوعية لأية قضية ، تفترض بالضرورة ، اخذ مجمل الظروف النوعية التي تلازم تلك القضية ، والاطار التاريخي الذي تبرز في ظله ، بعين الاعتبار ، فانه يستدل مما نشر من العديد من الدراسات اليسارية حول هذه المسألة ، انها قد عزلت بصورة تعسفية عن جانب من الخصائص والظواهر المادية للاطار التاريخي الذي برزت في ظله ، كما عزلت عن الظروف النوعية التي كانت تكتنفها والتي أدت بصورة حتمية الى ظهورها . وان معالجة تلك المسألة قد تمت في ضوء افتراضات معينة بعيدة تماماً عن الواقع الموضوعي لتلك القضية . على انه لابد من الاشارة هنا ، الى ان ذلك ، لم يجر ـ حسبما اعتقد ـ بدافع من سوء القصد او النية ، وانما كان ، على ما يبدو ، بدافع من الالتزام بصورة دوكماتية بمنهج معين ، انطلاقاً من الاعتقاد بان صلاحية استخدام ذلك المنهج ـ المنهج المادي ـ لتفسير حركة التاريخ

وتطور المجتمعات البشرية وانتقالها من مرحلة معينة الى مرحلة لاحقة ، تستتبعها امكانية استخدام المنهج ذاته لتفسير كل الاحداث التاريخية التي قد يكون من بينها ما يثبت انه لم يقع كحتمية تاريخية ، وانما جاء بصورة مفتعلة . ومن تلك الافتراضات المستمدة من المنهج المادي لتفسير التاريخ والتي تم في ضوئها تفسير الحركة الصهيونية ، افتراض وجود تركيب طبقي ضمن المجموعات اليهودية المتواجدة في اوربا يماثل التركيب الطبقي الموجود ضمن اي شعب يحدث ان توجد بينه مجموعة أو جالية يهودية ، مع ما ينطوي عليه ذلك من وجود صراع طبقي ضمن المجموعة اليهودية . وفي هذا يقول مؤلفو كتاب (الصهيونية ـ نظرية وممارسة) :

« ان انقسام الطوائف اليهودية وتقويض تأثير الديانة اليهودية ، وتسارع عملية التجنس والاندماج في ظروف الامبريالية ، كل ذلك قد أثار قلق الاوساط اليهودية العليا المستغلة ، على الصعيدين المادي والاجتماعي ، اللذين يعكسان مستوى سيطرة الاغنياء اليهود على الكادحين منهم . فقادة البورجوازية اليهودية ، الباحثين عن وسائل جديدة لاعادة مواقعهم السابقة المعتادة ، وجدوا ضالتهم المنشودة في المذهب الصهيوني ، الذي اسسه

صحفي من فينا ، منحدر من ارستقراطية بودابست اليهودية ، هو تيودور هرتزل . »[٣] ويمضي مؤلفو الكتاب الى القول : « ... كان الحديث يجري عن « موطن تأثير » يمكن ان يوحد اليهود المبعثرين في ارجاء العالم ، ايديولوجياً وروحياً ، ويخضعهم لقيادة الصهيونية العالمية ويفرض عليهم الضرائب ، ويمنعهم من التجانس مع شعوب البلدان ، التي يعيشون ضمنها . وباختصار فان هذا « الموطن » يبتغي تحويل اليهود في بلدان العالم كافة الى اداة بيد البورجوازية اليهودية الكبيرة ، وتسخير الجماهير اليهودية في خدمة مطامعها واهدافها السياسية . »[٤] وعلى صفحة (١٦٨) نقرأ ما يلي : « وتحاول الصهيونية ، باعتبارها تمثل في جوهرها ايديولوجية البورجوازية الكبيرة، الادعاء بحق تمثيل اليهود كافة ، بغض النظر عن انتمائهم الطبقي وجنسيتهم وارائهم . » ثم : « ولم تشجب الاممية الشيوعية جميع اشكال الصهيونية وحسب ، بل فضحت ايضاً نية اخفاء

---

(٣) مجموعة من الكتاب السوفييت ، الصهيونية ـ نظرية وممارسة ، ترجمة يوسف سلمان، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧٤ ، ص / ٥٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص / ١٠٦ .

هذه الايدلوجية القومية (العنصرية ؟) بلباس اشتراكي . »(٥)

وفي كتيب « سيف داود » لمؤلفه ليوكورن ، تستهل وكالة انباء نوفوستي الرسمية ، مقدمتها التي تتصدر الكتيب بما يلي :

« ان صهيونية اليوم تشكل اكثر القوى رجعية للقومية البورجوازية . »(٦) ثم : « لقد ظهرت الصهيونية في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر كايدلوجية قومية بورجوازية رجعية وعنصرية ، ومنذ البدء ، ارتبطت الحركة الصهيونية ارتباطاً وثيقاً عن طريق سياساتها بسياسات القوى الاستعمارية القائدة . »(٦)

ولو عدنا لستالين الذي يعتبر بحثه لمفهوم القومية واحداً من افضل ما نشر من معالجات علمية لهذه القضية ، فان من المستغرب ان نجابه بوصفه للحركة الصهيونية على انها حركة قومية : « ويفرد ستالين مناقشة مستفيضة للبوند ، يتابع فيها خط لينين ، وينكر عليهم تمثيلهم لليهود ، ويعرف الحركة الصهيونية ، بأنها « حركة قومية رجعية للبورجوازية اليهودية ، تجند أتباعها من

(٥) نفس المصدر ، ص / ٢٧٥ .

(٦) Korn. Leo, The Sword Of David, Moscow, 1977, P. 5.

بين المثقفين ، ومن اوساط العمال اليهود المتخلفين والصهيونيين الذين يريدون عزل جماهير العمال اليهود عن النضال العام للبروليتاريا . »(٧)

ويقرر ابراهام ليون ، المفكر اليهودي الماركسي : « ان الصهيونية ، اذن ، حركة قومية حديثة ، وهي احدث الحركات القومية الاوربية . »(٨)

وعلى صعيد العالم العربي الذي تهمه القضية اكثر من غيره اطلاقاً ، توصل بعض الباحثين العرب ممن تناولوا القضية بالبحث وممن يقفون في طليعة المدافعين عن القضية العربية والمسألة الفلسطينية الى نتائج مماثلة . فالدكتور صادق جلال العظم يطبق في معرض تحليله لنشوء الحركة الصهيونية والصراع المفترض بين البورجوازية اليهودية والبورجوازية المسيحية في اوربا الغربية في اواخر القرن التاسع عشر ، في ظروف صعود النظام الراسمالي ـ يطبق القوانين التي تتحكم في مسألة التحرر القومي على الحركة الصهيونية فيقول :

---

(٧) اديب ديمتري ، الماركسية والدولة الصهيونية (الوجود والكيان) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص / ٦٧ ، مقتبس عن ستالين ، المسألة الوطنية .

(٨) ليون . ابراهام ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص / ١٨٢ .

« أخذ هذا الصراع مظهر حركة العداء للسامية بين الاوربيين من غير اليهود مما دفع البورجوازية اليهودية نحو البحث عن سوق وطنية خاصة بها لايزاحمها عليها أحد ، ومن هنا بدأ الكلام الجاد عن (الامة اليهودية) و (الدولة اليهودية) في اوساط الطبقة اليهودية الوسطى وأوساط المعبرين عن مصالحها وتطلعاتها . »(٩) . ويميل السيد قاسم حسن الى الاعتقاد بان : « ... الرأسمالية اليهودية قائدة الحركة المسماة بالصهيونية . »(١٠) بينما يقطع الدكتور ميشيل سليمان بان الصهيونية حركة قومية ، كما يتضح ذلك من قوله : « في حين انجميع الحركات القومية هي، بمعنى من المعاني ، محاولات في اعادة تحديد صور الشعوب عن نفسها فان الصهيونية ، الحركة القومية اليهودية خلال القرن الماضي ، يكاد يكون منغير الممكن تحديدها على هذاالنحو فقط . »(١١)

---

(٩) الدكتور صادق جلال العظم . دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص / ٨٩ .

(١٠) قاسم حسن . العرب والمشكلة اليهودية ، المؤسسة التجارية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص / ٨١ .

(١١) الدكتور ميشيل سليمان . وسائل الاعلام الامريكية وحرب تشرين ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد (٤٠) كانون اول (ديسمبر) ١٩٧٤ ، ص / ٨٤ .

ومن ناحية اخرى ، فانه لأمر اعتيادي تماماً ، ان تصور الاقلام الصهيونية هذه الحركة على انها حركة قومية . ولا اظنني بحاجة الى ايراد ما يعزز هذا ، لكثرة وشيوع ما نلتقي به في قراءاتنا من اقوال ومزاعم في هذا الشأن .

ليس من شك في ان قلة المصادر المتوفرة التي تتناول القضية موضوع البحث بصورة موضوعية علمية ، وحقيقة ان غالبية مانشر عنها انما يعبر عن وجهة النظر الصهيونية ، وان تلك الاكداس الهائلة من الكتب والادبيات تستهدف اولا واخيراً تزييف سمات وحقيقة هذه الحركة الاستعمارية ، وتزوير الحقائق التاريخية المرتبطة بها وبواقع الوجود اليهودي في اوربا ، وتغطية كل ذلك بما يمكن ان يساعد في حث تنفيذ اغراض الحركة وتضليل الرأي العام العالمي ،وكسب الانصار من بين مختلف الاوساط ، حتى وان كانت متباينة الاتجاهات ، في مختلف البلدان ؛ الى جانب حقيقة ان البحوث العربية الموضوعية ذات المنهج العلمي في هذا الخصوص ظلت غائبة عن مسرح الفكر طيلة عقود بكاملها ، ولم يبدأ الفكر العربي بطرح مثل هذه البحوث الا مؤخراً ــ أقول ليس من شك في أن وضعاً كهذا يمكن بسهولة انيضع الباحث في متاهة تغلق عليه مجال رؤية الابعاد الحقيقية والعناصر

الاولية المكونة لهذه الحركة ، ولا تتيح له غير رؤية ذلك الجانب الذي تريده الصهيونية . ومن هنا فأن مسألة تحديد السمات الحقيقية والهوية الاصلية للحركة الصهيونية ليس بالامر اليسير . وعليه فليس من المستبعد ان يتوصل البعض ممن يعنى ببحث ودراسة هذه القضية الى نتائج وتحديدات قد تتناقض كلياً وحقيقة هذه الحركة ودوافعها .

ومما قد يساعد على الابتعاد عن امكانية تعيين تلك الهوية ، الوقوع تحت تأثير بعض الظواهر الحسية التي يمكن ان تبرز في مرحلة تاريخية معينة ـ مرحلة ظهور الحركة الصهيونية ـ والتي قد تتخذ مظهر سمة رئيسة من سمات تلك المرحلة ، الى جانب السمات والخصائص الاساسية التي تتميز بها تلك المرحلة . وبالرغم من ان تلك الظواهر انما هي سمات جانبية متخلفة عن مرحلة تاريخية سابقة ، فانه قد يبدو للبعض ان تلك الظواهر تشكل جزء من الخصائص والسمات الاساسية الهامة لتلك المرحلة . ان هذا التداخل بين السمات الاساسية العامة ، وبين ما ينتحل مظهر سمة مميزة ، قد يؤدي ، عند تقييم المسألة موضوع البحث ، الى اغفال الدور الذي يمكن ان تلعبه الخصائص الرئيسية المميزة لتلك المرحلة في تشخيص تلك المسألة ؛ او انه قد يقود الى عدم

ايلاء ذلك الدور ما يستحق من اهتمام . ولايضاح هذه النقطه ، نعود الى القرن الماضي الذي برزت فيه الحركة الصهيونية . لقد تميز القرن التاسع عشر بخاصية اساسية ـ خاصية كونه عصراً دخلت فيه الحركة القوميــة مرحلــة تعفن وانحطــاط ، وتحولت فيه الى ظاهرة رجعيــة ، شــوفينية ، إستعلائية ، اعتدائية ؛ حيث دخلت الراسماليــة فيه اعلى مرحلة من مراحل تطورها : المرحلــة الاستعمارية الامبريالية التوسعية . بينما نلاحظ ، من جهة اخرى ، ان نفس هذه الفترة الزمنيــة ، شهدت ، بروز حركات قومية متأخرة في ماتبقى من البلدان الاوربية التي لم تكن ـ ابــان القرن الثامن عشر (قرن نشوء وازدهار الحركة القومية التي تعتبر الثورة الفرنسية (١٧٨٩) اول انتصار حقيقي لها) ـ لم تكن مؤهلة لولوج مرحلة النضال القومي من اجل الوحدة الوطنية والقضاء عــلى البعثرة الاقطاعية وقيام البورجوازية الوطنيــة بانتزاع السلطة من الاقطاع . ان الحركات القومية التي كانت تشكل خاصية اساسية وسمة مميزة ومتميزة فيالقرن الثامن عشر ، لايمكن ، كما اعتقد، ان تعتبر سمة اساسية مميزة للقرن التاسع عشر ، وانما كانت سمة جانبية نجمت عنظاهرة متخلفةعن القرن الثامن عشر . وبنتيجة ذلك ، وبالرغم من ان

الحركات القومية كانت عند انفجارها ابان القرن الثامن عشر ، ظاهرة تقدمية صحية وضعت حداً لسلطة نظام اقتصادي ـ اجتماعي انتهى دوره ـ النظام الاقطاعي ـ فانها ، اي الحركات القومية المتأخرة [ايطاليا ، المانيا ، مثلا] لم تستطع الا ان تقع تحت تأثيرات الخواص الجديدة التي انتحلتها الحركة القومية في مرحلة تعفنها ، وكذلك تأثيرات السمات والخصائص الاساسية العامة التي تميز بها القرن التاسع عشر : خاصية الظاهرة الاستعمارية ـ الامبريالية ، والتسلط على الشعوب الاخرى والتوسع الجغرافي خارج حدود القارة الاوربية . ففي الوقت الذي كانت فيه الحركات القومية المتأخرة ، تتميز بصفات تقدمية ـ انهاء السلطة الاقطاعية ، تحقيق الوحدة الوطنية الخ .. من جهة ، فانها استمدت في الوقت عينه ، بعض السمات والخصائص المتأخرة للحركة القومية ، من جهة اخرى . وهكذا .. فانه لم تكد الحركة القومية في ايطاليا والمانيا ان تحقق اهدافها ـ انتزاع السلطة من الطبقة الاقطاعية ، تحقيق الوحده الوطنية الخ ... حتى اندفعت باتجاه حماية مصالحها في بلدان اسيا وافريقيا وانتزاع حصتها من المائدة الاستعمارية : اسواق خارجية ، مصادر للمواد الاولية ، استثمارات خارجية .

ان تقويم حركة سياسية في ضوء ظاهرة جانبية تبرز في مرحلة تاريخية متأخرة ، وقد فقدت ـ اي الظاهرة ـ ميزاتها الاساسية ، او انها قد انتحلت الى جانب تلك السمات ، الميزات التي تتسم بها في مرحلة زمنية متأخرة ، ينطبق اشد الانطباق على الحركة الصهيونية . فقد تم تقويم وتحديد هوية هذه الحركة في ضوء حركة النضال القومي الذي خاضته شعوب عدد من بلدان اوربا في اواخر القرن الماضي ـ البلقان ـ من اجل التحرر الوطني ، وربما بدرجة اكبر في ضوء الحركة القوميه في ايطاليا والمانيا اللتين كانتا تسعيان من بين امور اخرى ـ الى تحقيق الوحدة القومية والقضاء على التجزئه الاقطاعية ، مما ادى الى نعت الحركة الصهيونية بانها حركة قومية .

حقاً .. اننا لانستطيع الا ان نقر بصحة مثل هذا المنهج في دراسة وتحليل وتفسير الوقائع التاريخية بشكل عام . غير انه ينبغي ان نتذكر انه ليس من المستبعد ان يؤدي ذلك ، في حالات معينة، الى الوقوع في منزلق وضع تقييمات تفشل في ان تكون مطابقة لحقيقة وواقع المسألة موضوع البحث وخاصة اذا ما كان جوهر القضية والظروف النوعية التي تكتنفها ، وخصائصها الفعلية ، قد

ابقى محاطاً بضباب مبهم ، كما الامر بالنسبة للحركة الصهيونية .

ان اطلاق صفة « قومية » على الحركة الصهيونية واعتبارها تعبيراً ايديولوجياً عن مصالح « الطبقة » البورجوازية اليهودية ، يتعارض في حقيقة الامر ، والمعطيات والوقائع التاريخية لهذه الحركة والقوى الاساسية المحركة لها والمستفيدة منها . وهو اضافة لذلك يعني ، شئنا ام أبينا ، الاقرار باصالة هذه الحركة اولا ، وبحتمية قيامها بدوافع ذاتية ثانياً . وبالرغم من حقيقة انها قد تمكنت من بلوغ هدف اساسي من اهدافها ـ الدولة الاسرائيلية ـ الا ان ذلك لم يكن تطوراً حتمياً أملته حركة التاريخ بصورة تلقائية نتيجة لتفاعلات ذاتية جرت داخل البنية اليهودية ، وانما كان مظهراً لحركة مفتعلة تسير باتجاه معاكس لحركة التاريخ العامة . كما ان ذلك لايعني باي حال ، كون تلك الحركة ، حركة اصيلة . ومن جهة ثانية ، فان ذلك لايعني انتفاء ضرورة البحث عنها وفهم حقيقة دوافع هذه الحركة فهماً موضوعياً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، فان اضفاء صفة «قومية» بشكل قسري عليها ، ينفي عنها حقيقة كونها مشروعاً استعمارياً ، يستهدف اساساً خدمة المصالح الاستعمارية التوسعية في المنطقة ،ومحاولة

صريحة لأدامة الوجود الاستعماري وتغلغله مجدداً في المناطق التي ارغم على الانسحاب منها .

هذا كله ، الى جانب حملات التشويه التي رافقت الحركة الصهيونية ، (والتي ما زالت تواكب برامج دولة اسرائيل) ، والاهداف التي تبتغيها تلك الحملات ، ونتائج الدراسات التي تكاد تجمع على اعتبار الحركة الصهيونية حركة قومية، برغم افتقارها كلياً لاي من مقومات وسمات وخصائص الحركات القومية ، تجعل من غير الممكن اعتبار تلك النتائج على انها احكام نهائيه غير قابلة للمراجعة ، وتستدعي ، من جهة اخرى ، دراسة ثانية شاملة لتاريخ هذه الحركة ، ومجمل القضايا والظروف التي ساهمت ، بشكل او بآخر ، في بروزها ؛ واعادة النظر في التقديرات المختلفة التي وضعت لتعيين هوية هذه الحركة .

حقاً .. ان الاجهزة الصهيونية كان يهمها جداً ان تضفي على الحركة الصهيونية طابعاً قومياً، وذلك في محاولة منها لمنح الحركة الصهيونية صفة شرعية وحتمية تاريخية ، باعتبارها افرازاً طبيعياً وتلقائياً للمشكلة اليهودية ، التي تنفي كل المعطيات التاريخية وجود اية علاقة دايلكتيكية عضوية متبادلة ، او حتى علاقة ميكانيكية ، بينها وبين

الحركة الصهيونية .(١٢) فطالما وجد اي مؤشــر قومي ، او دافع ملموس اوغير ملموس ، حقيقي ام مفترض ، وان كان يفتقر الى ما يحقق له وجوداً فعلياً حسياً ـ كانعدام الارض المشتركة او الثقافة المشتركة الخ ... ، فلا بد ان يبلغ ذلك المؤشر او الدافع ، في وقت ما ، درجة من النضج تدفعه الى النضال من اجل ايجاد ما يفتقر اليه من مقومات اساسية تحقق وجوده الفعلي ، وذلك كضـرورة تحتمها حركة التطور التاريخي . ومن هنا ، فان مهمة ايجاد ما اصطلح عليه «وطن قومي» اليهود ـ وهو ما يمكن اعتباره مؤشــراً ودافعــاً قومياً ـ تفترض ضمناً وجود كيان قومي مبعثر (امة) ، بلغ مرحلة من النضج ـ مرحلة تتكامل فيها البنى الطبقيه : الطبقة البورجوازية، الطبقة البورجوازية الصغيره ، الطبقة العاملة ، والطبقة الفلاحية ـ مع افتراض امكانية انعدام المقومات القومية الاخرى : الارض ، اللغة ، الثقافة ، التكوين النفسي المشترك والحياة الاقتصادية المشتركة ، مما يقود بالضرورة الى النضال من اجل ايجاد ارض مشتركة يحقق فوقها وحدته القومية السياسية ومن اجل ضمان

---

(١٢) للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، انظر كتاب المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية للكاتبة .

تحقيق واحد من أهم الدوافع الاساسية لنشوء ونمو الحركات القوميه ـ السوق الوطنية . ومن المعلوم ان انتفاء المقومات والعناصر الاساسية التي يتكون من مجموعها مفهوم القومية ،بالنسبة للواقع اليهودي ـ أدى الى استبدال العقيدة الدينية بكل هذه المقومات الاساسية التي يغدو مفهوم القومية الواحدة ، بدونها ، خرافة جريئة . ومن هنا كانت الدعوة من اجل احياء (الامة اليهودية) والى « ايقاظ الشعور لدى كل يهودي حول وضعه ... والسعي لاقناعه اذا كان لايرغب في زوال الشعب اليهودي ، بان استمراره على قيد الحياة لاتضمنه سوى سبيل واحدة لاغير ، الصهيونية ... » كما يقول الزعيم الصهيوني نورداو .(١٣)

ونجد هذا منعكساً أيضاً في موقف ممثلي الحكومات الغربية الاستعمارية التي كان لها مصالح عميقة ومتسعة في الشرقين الادنى والاقصى ،والتي تبنت الفكرة الصهيونية وفكرة توطين اليهود في فلسطين قبل نشوء الحركة الصهيونية . وهذا

(١٣) الدكتور أسعد رزوق ، اسرائيل الكبرى ، منظمة التحرير الفلسطينيه ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص / ١٥٠.

يتضح بجلاء في ما زعمه بالمرستون ، رئيس الوزراء البريطاني (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥) مـن « ان هناك في الوقت الحاضر (١٨٤٠) فكرة قوية لدى اليهود المنتشرين في اوربا مفادها ان الوقت يقترب لأمتهم كي تعود الى فلسطين ... »(١٤) وفي نفس العام ، نشرت صحيفة التايمز اللندنية مقـالا بعنـوان (سوريا ونهضة اسـرائيل) ، قالت فيـه : « ان اقتراح اسكان اليهود ... في وطن ابائهم وتوطينهم هناك تحت حماية خمس دول لم يعد يشكل قضية موضع مناقشة ، بل أصبح بالاحرى مادة لمناقشة جدية . »(١٥)

ان الدعوة الصهيونية اللايهوديـة لأسـكان اليهود في فلسطين لم تقتصر على الساسة والدعاة البريطانيين ، وانما وجدت اهتماما لدى ساسـة وقادة اخرين في عدد من البلدان الاوربية الغربيـة التي كانت لهامطامع استعمارية فيالشرق الاوسط.

---

(١٤) Avnery. Uri, Israel Without Zionists, A Plea for Peace in the Middle East, The Macmillan Company, New York, 1968, P. 56.

(١٥) ايفانوف . يوري ، احذروا الصهيونية ، وكالة انبـاء نوفوستي ، موسكو ، ١٩٦٩ ، ص / ٣٢ ـ ٣٣ .

فالسكرتير الخاص لنابليون الثالث ارنست لاهران (Ernest Laharanne) يقول في كتاب له صدر عام ١٨٦٠ ، بعنوان (المسألة الشرقية الجديدة) : « ان اي عضو في الجنس اليهودي لايمكن ان يتخلى عن حق شعبه الذي لاجدال فيه والاساسي بأرض اجداده دون ان يتبرأ بذلك من ماضيه واجداده .... ان دعوة عظيمة محجوزة لليهود : ليكونوا ممراً حياً بين القارات الثلاث ، انكم سوف تكونون حملةالمدنية الاوربية التي ساهم بها جنسكم لحد بعيد . »(١٦) فيما حث الزعيم الايطالي مازيني (١٨٠٥ – ١٨٧٢) اليهود على البحث عن وطن لهم : « بدون وطن تبقون بلا اسم، بلا علاقة مميزة ، بلا صوت ولا حقوق ، ... ايها الاسرائيليون ... لاتخدعوا انفسكم بأمل التحرر من ظروف اجتماعية مجحفة ان لم تفتحوا ، اولا ، وطناً لانفسكم ... »(١٧) بينما نلاحظ ، من جهة

---

(١٦) Hertzberg. Arther, The Zionist Idea, A Historica l Analysis and Reader, Meridian Books, Inc., New York, 1960, PP. 133-134.

(١٧) الدكتور العظم ، المصدر السابق ، ص / ٩٢ – ٩٣ .

* مصطلح فرنسي يقصد به الاوساط المالية العليا .

اخرى ، ان بسمارك كانت لديه رغبة في توطين اليهود في المنطقة المحاذية لخط بغداد ــ برلين .
هذه نماذج سقناها على سبيل المثال ، وليس الحصر ، تعكس اهتمام الدول الامبريالية ابان مرحلة التوسع الاستعماري بتوطين اليهود في منطقة الشرق الاوسط .

الصهيونية والحركة القومية

لايخفى ان الحركة الصهيونية قد استعارت رداء الحركة القومية الاوربية التي لازمت وانبثقت عن تبلور وتكامل البنية البورجوازية الرأسمالية وانتصارها على الاقطاعية ، الى جانب نشوء وتكون كيان طبقي مستغل (بفتح الغين) هو الطبقة العاملة . وبالرغم من ان ظاهرة الحركة القومية في اطارها التاريخي الطبيعي كانت ظاهرة ثورية وتقدمية ، فان الصهيونية حاولت تطبيق مفهوم القومية على مضمون مثالي وهمي لاوجود له ، ورجعي ؛ ليس فقط من ناحية فكره ، وانما حتى من ناحية وجوده الزماني . ان الحركة القومية الاوربية اذا كانت تسير باتجاه مستقبلي في مرحلة سعيها من اجل توطيد موقع البورجوازية الناشئة وضمان سوقها القومية من جهة ، وتحطيم كيان

انتهى كمرحلة تاريخية والانتقال الى مرحلة اعلى من مراحل تطور المجتمعات البشرية ـ المرحلة الراسمالية ـ فان « قومية » الصهيونية كانت على الضد من ذلك تتحرك باتجاه تراجعي في مسعاها من اجل العودة الى تنظيم اجتماعي بائد ـ التنظيم القبلي الاسرائيلي ـ المغلق . وبطبيعة الحال فان الحركة الصهيونية حين استعارت خصائص وسمات الحركة القومية الاوربية انما فعلت ذلك من اجل كسب عطف تلك الحركة وتأييدها في سعيها من اجل الحصول على ارض تجمع فوقها (الامة اليهودية المبعثرة !) في الشتات ، ومن اجل ان تنتزع لنفسها فضيلة التعبير عن أمان شمولية وهمية لمجموعة بشرية معينة ، بهدف الحصول على شرعية تمثيلها لتلك المجموعة واكتساب احترام العالم .

من المعروف ان الحركات القومية الاوربية تجسد ذروة النضال الطويل الذي خاضته الطبقة البورجوازية المسيحية من اجل تحقيق الانهيار الكامل للنظام الاقطاعي والاستيلاء على السلطة وتحقيق الوحدة الوطنية والقضاء على التجزئة السياسية والاقتصادية الاقطاعية التي كانت تعني في التطبيق بعثرة القوى المنتجة وتجزئة السوق الوطنية . لقد كان طبيعياً ان تبلغ الطبقة

البورجوازية المسيحية التي بدأت بالتكون منذ القرن الحادي عشر تقريباً ، مرحلة التكامل والنضج ابان القرن الثامن عشر . وكان طبيعياً ان تسعى البورجوازية المسيحية في اوربا الغربية التي تصلب عودها وترسخت جذورها في التربة الاقطاعية ذاتها ، الى الاستيلاء على السلطة بعد تنحية ممثلي النظام الاقطاعي ، وذلك كي ينيسر لها السيطرة على القوى العاملة المنتجة وتوحيدها في ظل راية سياسية واحدة ، وتوحيد السوق الوطنية لتأمين تصريف منتجاتها . ومن هنا نستطيع ان نفهم الاسباب التي دفعت البرجوازية المسيحية الاوربية الى قيادة الحركات القومية التي تعبر عن ايديولوجيتها وتستهدف تحقيق مصالحها ، والى تزعم الثورات الجمهورية التي ادت الى تسلم البرجوازية في غربي القارة ، زمام السلطة . وقد يكون من المفيد ان نعيد للذهن اهم السمات التي كانت تطبع الحركات القومية الاوربية ليكون بمقدورنا تقييم الحركة الصهيونية التي يعتبرها البعض واحده من الحركات القومية الاوربية المتأخرة ، في ضوء ذلك .

لقد كانت الحركة القومية محصلة طبيعية وحتمية لنشوء ونمو الطبقة البرجوازية المسيحية وتطور النظام الراسمالي في ظروف تفتت وانهيار

النظام الاقطاعي . وكان هدفها الأساسي ، كما هو معروف ، تسلم السلطة والقضاء على التبعثر القومي وتوحيد امة واحدة موجوده فعلا ولها تاريخ مشترك ولغة مشتركة وثقافة مشتركة ، وتعيش فوق ارض واحدة ولكنها مجزأة ، سياسيا واقتصاديا نتيجة لطبيعة النظام الاقتصادي السائد. وكان الهدف الجوهري من وراء ذلك ، خلق قاعدة انتاجية وسوق وطنية موحده تمتص الانتاج . ان الحركة القومية كانت الحلقة النهائية من سلسلة طويلة من احداث ووقائع ساهمت ، ابتداء من القرن الحادي عشر ، في تشكيل وانماء القومات والملامح الاولية للوجود القومي ، كولادة البرجوازية التجارية المسيحية عن طريق تحول آلاف العبيد المحررين الى تكوينات برجوازية ، ونشوء طبقة عاملة ، وتمردات الفلاحين ،وحركة استقلال المدن. كماان الحركة القومية كانت تستند في تحقيق اهدافها الى القوى المحلية الوطنية ، التي كانت تتألف من البرجوازية الوطنية والقوى العاملة المنتجة .اضف لذلك انالصراع الذي خاضته البرجوازية المسيحية عند بدء نشوء الحركة القومية ، كان موجهاً ضد كيان وطني ينتمي الى ذات القومية والى ذات العقيدة الدينية ، ولم يكن ضد كيان اجنبي ينتمي الى قومية مغايرة ، كما انه لم يكن من اجل

الاستحواذ على ارض تعود لقوم اخرين ، وانما من اجل توحيد نفس الارض التي نبتت فيها الحركة القوميـــة . ثم ان « الدولة القوميـــة » ، الهدف الاساسي للحركة القومية ، انما هي امتداد طبيعي لوجود قومي مشترك مستمر وقائم فعــلا فوف ارض مشتركة ولد عليها بصورة طبيعية وبغير ما حاجة الى عملية قيصرية .

فما مدى انطباق ذلك على الحركة الصهيونية، وهل يمكن النظر الى الصهيونيـــة على انهــا تعبير ايديولوجي عن المصـــالح القوميـــة للبرجوازيـــة اليهودية ، وهل صحيح ان البرجوازية اليهودية الكبيرة هي القوى الدافعة التي تولت زمام قيـــادة الحركة الصهيونيـــة بهدف لم شتـــات « القـــوى اليهودية المنتجة » المبعثرة في العـــالم ، وبالتالي توحيد واستغلال هذه « القوى المنتجة » وايجاد سوق وطنية ــ اي هل كانت الحركة الصهيونية افرازاً طبيعياً لوضع مادي معين ــ لحاجة مادية معينة قائمة داخل بنية المؤمنين بالعقيدة اليهودية، وهل يصح ، بالتالي ، ان نصف هذه الحركة بانها قومية ، أم انها برزت نتيجة لحاجة تقع خارج دائرة المجتمع اليهودي ؟ ولو وافقنا على انها حركة قومية، الا يعني ذلك اننا سنجيز لأنفسنا الوقوع في مأزق

الموافقة على ان العقيدة اليهودية تخلع على المؤمنين بها صفة قومية ، نظراً الى ان البرجوازية اليهودية لاتنتمي الى قومية واحدة ، وانما هي كيان كوزموبوليتاني ، وبالتالي ، الا نكون قد أبحنا لانفسنا الوقوع في شرك الصهيونية التي تستمد — برغم انها حركة سياسيه علمانيه — كل محاجحاتها ومقومات كونها « حركة قومية » من تراث غيبي ميثاق الرب لابراهيم ، ارض الميعاد ، الاسباط اليهودية (او ما يصطلح عليه بلغة معاصره « العنصر اسطوري : ميثاق الرب لابراهيم ، ارض الميعاد ، الاسباط اليهودية ») ، والتوراة! واذا كانت الحركات القومية في اوربا ، تعبيراً عن مضامين الايديولوجية البرجوازية ، فاي تعبير يمكن ان تجسده الحركة الصهيونية ، اذا تذكرنا ان البرجوازية اليهودية كانت مندغمة بالبرجوازية المسيحية ، وانها قد استطاعت ان تحقق اهدافها ومطامحها وفي مقدمتها السيطرة على القوى المنتجة (الطبقة العاملة المسيحية) ، وتسخيرها في ماكنة الانتاج الراسمالي، والسيطرة على السوق الوطنية ، حيثما كانت ، (وكذلك الاسواق الخارجية في المستعمرات) ، بل وحتى المساهمة في الحكم في مختلف بلدان اوربا ، وانه لم يكن يوجد هناك مايشكل تهديداً لها او يعرض مصالحها للخطر سواء داخل التكوين اليهودي او الكيان المسيحي ؟

موقع البرجوازية اليهودية ـ موقفها من الصهيونية

وقائع التاريخ تقدم لنا واقعاً تاريخياً يختلف كلية عن المنظور المتصور عن تاريخ اليهود في اوربا الغربية ، بعد عودتهم الى هذه المنطقة من القارة ، منذ اواسط القرن السابع عشر ، وعن الحركة الصهيونية . والمعطيات التاريخية تصل بنا الى نتيجة واحده هي ان ايديولوجية البرجوازية اليهودية كانت جزء لايتجزأ من ايديولوجية البرجوازية المسيحية . فعلى خلاف الرأي السائد الذي يقول ان البرجوازية اليهودية قد تزعمت الحركة الصهيونية للوقوف بوجه البرجوازية المسيحية التي وجدت في الاولى ـ بعد خروجها من الغيتو ـ منافساً خطيراً لها ـ على خلاف هذا الرأي تؤكد الحقائق التاريخية على ان العلاقات التي كانت تربط مابين البورجوازيتين اقوى بكثير مما يتصوره اولئك الذين تصدوا لبحث هذه المسألة. ولعل ذلك يتجلى بأفصح ما يمكن في ما يقوله دافيد لاندس عن العلاقات التي تربط ما بين العناصر المالية اليهودية والمسيحية في عالم المال في اوربا القرن التاسع عشر : « لا نقاش في ان ما يشترك به ، روتشيلدوزملاؤه البروتستانتوالكاثوليك فيالبنوك العليا(*) ، مهما كانت عظيمة خلافاتهم الدينية

(*) الدكتور رزوق ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

وخلفياتهم العائلية ، اكثر مما يشترك به كل منهم وبعض الذين يعتنقون نفس عقيدتهم والذين يناضلون في القطاعات الادنى من عمليات التبادل الصغيرة ... »(١٨) ان حركة تحرير اليهود التي بدأت عملياً في اوربا الغربية (عدا هولندا وتوسكان) في عام ١٦٥٦ ، لم تكن ثمرة نضال خاضه اليهود من اجل الخروج من الغيتو ، وانما تمت على يد ممثلي البرجوازية المسيحية، حين فتح كروموبل ابواب انكلترا مجدداً امام اليهود نظرا لحاجته الماسة الى اموالهم وذلك لتدعيم صراعه ضد الازدهار والتوسع الهولندي ، ومن اجل تثبيت مطامح انكلترا في البحر الابيض المتوسط الذي كان حتى ذلك الحين حكراً للتجار الايطاليين والفرنسيين، فضلا عن حاجته لأموالهم لمواجهة المصاعب الداخلية التي لم يكن بمقدور الحي المالي في لندن بمفرده ، ان يخفف من ضغطها . وحقائق التاريخ تؤكد انه اذا كان لدى البرجوازية اليهودية ، الكبيرة والصغيرة على السواء ، ثمة احساس بالعداء ازاء جهة ما ، فان عدائها ذاك لم يكن موجها ضد البورجوازيه المسيحية ، وانما كان موجهاً ضد

(١٨) Landes. David, S., Bankers and Pashas, Heinemann, London, 1958, PP. 32-33.

الحركة الصهيونية نفسها ، وقيادتها الحقيقية المتمثلة بحفنة من المثقفين المنحدرين عموما من البرجوازية الصغيرة المنفلتة من الغيتو الشرقي .. لقد كان عداء البورجوازية اليهودية الغربية للحركة الصهيونية ومشروعها بانشاء وطن قومي في فلسطين وكذلك للمهاجرين اليهود من اوربا الشرقية ، عميقاً الى درجة جعلت هيرتزل نفسه يعلن دونما مواربة ، ان هناك « لاسامية يهودية » ! يقول هرتزل : « وهكذا ، فان العديد من اصدقاء اليهود الظاهرين يثبتون في النهاية ،وبعد التمحيص عن كثب ، انهم لايزيدون عن كونهم اعداء للسامية من اصل يهودي في اردية خيرية . »(١٩)

ولالقاء مزيد من الاضواء على موقف البورجوازية اليهودية من الحركة الصهيونية ، وموقف هذه من الاولى ؛ ولكي نعيد بعضاً من حقائق التاريخ الى موضعها الحقيقي ، فقد يكون من المفيد ان نترك المنبر لهرتزل نفسه ، ليحدثنا عن الامر بما يكشف عن العلاقة بين الجانبين :

في رسالة كتبها الى روتشيلد في ١٨٩٥/٦/١٥ ،تجاوز هرتزل كل حدود المجاملات، حيث راح يهدد المليونير اليهودي قائلا : « من

---

(١٩) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢١٢ .

اعطاكم الحق لان تعملوا هذا ، اي قضية انسانية تخدمون ، وعلى اي حال ، من انتم . لأنه ليس هناك مكان تعطون فيه حقوقكم كاملة او حتى تعتبرون فيه مواطنين عاديين . وانتم الذين تقدرون ان تشدوا أحزمة ما يقرب من ثلاثة ملايين من الجنود . انتم وصناديق اموالكم يجب ان تقام الحراسة حولكم خوفاً عليكم من اناس لايعرفون الحقيقة بعد . وما تزال ثروتكم الملعونة تزداد انها تزداد بسرعة تفوق ازدياد الثروات القومية للبلدان التي انتم فيها ، لذلك فان هذه الزيادة انما هي على حساب ازدهار الامة ، حتى لو كنتم انتم انفسكم أحسن الناس خلقاً .

لهذا السبب سوف لاتقبل الدولة اليهودية بثروتكم المخيفة هذه لأنها تحد من حريتنا الاقتصادية والسياسية حتى ولو ذهبتم معنا . هل تفهموننى ايها السادة ؟ وكيف نوقف ازدياد ثروتكم ونحن نعمل على ازدياد ثروة كل فرد ؟ هل نضمر لكم قوانين خاصة تقف ضدكم ؟ يالنكران الجميل وللسخف اذاساعدتمونا ! ايها السادة ،اذا لم تذهبوا معنا قد نضطر ان نعلن خروجكم على القانون ، ونمنعكم من دخول بلادنا ، كما في فرنسة

حيث يمنع دخول المطالبين بالعرش وجميعهم ورثاء عائلات فرنسية . »[20]

وفي ١٨٩٥/٧/٢٧ ، كتب الى هيرش الذي كان قد انشأ مستعمرة يهودية خيرية في الارجنتين: « ان الاسطورة التي يتناقلها الناس عنك خطأ واضح . انت تتلهى بقضية اليهود ، وكما تنزل خيولك للسباق تبعث باليهود الى الهجرة ، وهذا ما أثور عليه بشدة ، ليس اليهودي لعبة تتلهى بها .[21]

وفي المؤتمر الذي عقد في ١٨٩٥/٨/١٨ في ميونيخ اتخذ المؤتمرون قراراً بمقاطعة روتشيلد : « لقد اتفقنا على ان لايصل الخطاب الى آل روتشيلد ، لانهم حقيرون ، اذلاء محبون لانفسهم . »[22]

في ١٨٩٦/١١/٧ ألقى هرتزل خطاباً في فينا. وقد كتب عن خطابه ذاك مايلي : « تكلمت بشكل

---

(٢٠) يوميات هرتزل ، ترجمة هلدا شعبان صايغ ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينيه ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص / ٤١٣ .

(٢١) نفس المصدر ، ص / ٤١٦ .

(٢٢) نفس المصدر ، ص / ٤٢٢ .

خاص معارضاً التدبير الروسي ــ الفرنسي المقترح للاقتصاد التركي ،لانه سيقطع طريقنا الى فلسطين ــ وسوف ارسل هذا المقطع من خطابي الى دهاس في لندن ، الجملة الرئيسيه فيه : « ان رجال المصارف اليهود الكبار الذين سيشتركون بهذا المشروع ، دون ان يراعوا آلام فقراء اليهود ودون ان يغتنموا الفرصة ليسهموا في حل المسألة اليهودية ،سوف يتعرضون لمسؤولية خطيرة جداً. وفي الوقت نفسه أدعو دهاس ليقوم بحملة ضد المشروع في انجلترا واميركه . ويجب ان يدعو الى اجتماع جماهيري احتجاجي في الطرف الشرقي (لندن) . كما اني أدعو الى تأسيس صندوق قومي يحقق استقلالنا عن المصرفيين الكبار . »(٢٣)

وفي ١٨٩٨/٢/٢٢ كتب الى نورداو حول البنك اليهودي قائلا : « يجب ان نخلقه بمساعدة الرؤوس الكبيرة او بالرغم عنهم ... اذا هم تخلوا عن الحركة الصهيونية ، فسوف ينقلب عليهم وينتقم منهم ... »(٢٤)

وحول الموضوع ذاته ،كتب في ١٨٩٨/٤/٢٢

---

(٢٣) نفس المصدر ، ص / ٤٦ ــ ٤٧ .

(٢٤) نفس المصدر ، ص / ٩٣ .

الى نورداو : « وبحسب التقارير التي ستأتيني من جميع انحاء العالم ، ستكون هذه النواة كافية ، وعلى مثل هذا الاساس سنجبر كبار اصحاب البنوك ان ينضموا الينا ، والا فسوف نسير وحدنا ونحارب هؤلاء الكلاب . »(٢٥)

وعلى الصفحة (٦١٣) من مذكراته ، يقول هرتزل : « وعلى كل حال فان السفلة اصحاب الاموال لن يستطيعوا ان يتصرفوا كما فعلوا حتى الان . »(٢٦)

ومرة اخرى ، وفي معرض حديثه عن بنك الاستعمار اليهودي على صفحة (٧٨٧) من مذكراته ، يعلن هرتزل : « فاننا حتى الان لم نؤمن بنكاً واحداً يقبل ان يكون وكيلا للاشتراك وهناك مقاطعة تامة من قبل الاوساط اليهودية المتمولة . على اننا اتفقنا جميعاً انه اذا لم تأتنا مساعدة من القيصر اوالدوق الكبير فسوف نقع فيمأزق . »(٢٧)

وفي رسالة بعث بها الى قيصر المانيا قال هرتزل : « ... ان كثيرين من اغنياء يهود الجانب

---

(٢٥) نفس المصدر ، ص / ٩٥ .

(٢٦) نفس المصدر ، ص / ١٠٨ .

(٢٧) نفس المصدر ، ص / ١٣٤ .

الغربي من لندن يخافون من انتحملهم على الذهاب معنا . لذلك فهم يخطؤننا ويهزأون بنا في احاديثهم وجرائدهم ... »(٢٨)

وعلى صفحة (١٣٨) يقول في رسالة بعث بها الى وزير الدولة الالماني بولو بعد ان رفض القيصر مقابلة هرتزل : « ... ان المعلومات التي وصلتكم من اعدائنا ، خاصة اعدائنا اليهود ، هي غير صحيحة . »(٢٩)

وبتاريخ ١٩٠٠/٢/٢٨ ، قال في رسالة بعث بها الى رئيس الوزراء النمساوي : « تجابه الحركة الصهيونية مقاومة اثرياء اليهود . »(٣٠)

في حزيران ١٩٠٢ ،اوضح أن لورد روتشيلد يعارض دعوة هرتزل للمؤتمر « ... لانه يعتقد باني زعيم شغب وصاحب مشاكل . »(٣١) ثم يقول : « اني بحاجة الى ال روتشيلد . وماذا اذا رفضوا ؟ سيلاقون عواقب ذلك . »(٣٢)

---

(٢٨) نفس المصدر ، ص / ١٣٧ .
(٢٩) نفس المصدر ، ص / ١٣٨ – ١٣٩ .
(٣٠) نفس المصدر ، ص / ١٥٩ .
(٣١) نفس المصدر ، ص / ٢١٦ .
(٣٢) نفس المصدر ، ص / ٤١٢ .

ويمضي هرتزل في تسليط الضوء على العداء الذي يضمره اثرياء اليهود لمشروعه فيقول : « اما كبار اليهود فسوف يفشلون المشروع برفضهم ، ومن المؤكد انهم سيكونون أول من سيدفع ثمن ذلك . »(٣٢)

ويفكر هرتزل في وضع خطة لمحاربة آل روتشيلد ، فيقول : « الطريقة الوحيدة هي ان يلتحم صغار اصحاب البنوك معاً ،ويؤلفوا معاً قوة مالية هائلة ونحارب ال روتشيلد فنسحبهم الى جانبنا او نحطمهم . »(٣٢)

ويمضي هرتزل في هجومه العنيف على اغنياء اليهود ، حيث يقول : « ان هؤلاء الاغنياء يريدوننا ان نتجمد . سيكون انتقامي منهم فظيعاً . قد اعلن المقاطعة في هذا المؤتمر . »(٣٣) ويقول ايضاً : « اذا انتقمنا يوماً من هؤلاء الكبار من اصحاب البنوك فسوف نكون على حق ...

« اخبرته (جاستر) بالحقائق هذه ... واريد ان اتحدث معه بخصوص الحملة التي سنشنها ضد اصحاب البنوك الكبار .

---

(٣٣) نفس المصدر ، ص / ٤٤٨ .

« ان الاغنياء (والعظماء في اسرائيل) يتحملون مسؤولية مخيفة بتخليهم عنى ... » (٣٤)

ومرة اخرى يفجر حقده على اصحاب الملايين من اليهود ، حيث يقول بعد ان تراجع اثنان من اصحاب البنوك عن تأييدهما للصهاينة : « ابرق ولفسن يخبرني ان سليجمان وماركس صاحبي البنك اللذين كان منتظراً ان يأتيا الى كولون لحضور مؤتمر البنك قد سحبا قبولهما . هذه الحيلة الوسخة تستوجب اعادة النظر في كل شيء. سأبدأ مشروع البنك في المؤتمر ، وهذا سيخلصنا من الاعتماد على اصحاب البنوك أبناء الحرام . »(٣٥)

وخلال المساعي والمحاولات التي كان يجريها هرتزل من اجل اقناع روتشيلد بتقديم المساعدة لمخططه الاقتصادي السياسي للحصول على فلسطين ،كتب الزعيم الصهيوني في ١٩٠٢/١/٢٠، موضحاً في معرض تقديمه للمخطط : ان « على روتشيلد ان يساعد لاكيهودي ولكن كانجليزي . »(٣٦)

---

(٣٤) نفس المصدر ، ص / ٤٤٧ .

(٣٥) نفس المصدر ، ص / ٤٤٧ – ٤٤٨ .

(٣٦) نفس المصدر ، ص / ٨٦ .

وفي رسالة كتبها في ١٨٩٧/١٢/١١ ، الى نورداو ، قال هرتزل في معرض حديثه عن اثرياء اليهود لحثهم على الاسهام في البنك اليهودي :
« وكل ما في الامر هو ان يكون لهؤلاء الناس مخيلة تمكنهم من رؤية ما سيكون خلال ثلاثة او اربعة اشهر من الان ، او اي شيء اخر تسمح لهم مخيلتهم النائمة على اكياس المال ان يروه ... اذا حاولوا اثارة الرأي او رفضونا بشكل مضر فسوف اثير ضدهم حرب عصابات خاصة اذا عرفت انك تقف الى جانبي في هذا ، سننتقم متى جاء الوقت.

ولكن ربما لايأتي مثل هذا الوقت الذي به يرفضوننا وأنا افضل ان لايأتي لاسباب سياسية ، مع اني اعتبرهم طفيليين وأنا حاقد عليهم من كل قلبي . »(٣٧)

ولايتردد هرتزل في اطلاق ما يروق له من نعوت على اثرياء اليهود وهو يفجر حقده عليهم :
« ان السافلين من امثال هرمان لاندو لايزالون يسيئون الينا بأمر من سافلين اخرين امثال مونتاجو والحاخام أدلر . »(٣٨)

---

(٣٧) نفس المصدر ، ص / ٩١ – ٩٢ .

(٣٨) نفس المصدر ، ص / ٤٥٠ .

اما وايزمان فيقول في هـذا الصدد : « أن الطواغيت اليهود ، مع استثناءات قليلـة جداً ، كانوا يناوئون الحركة الصهيونية بمرارة . »(٣٩)

هذه التصريحات لاتترك مجالا للشك في ان وداً مفقوداً كان يميز العلاقة الحقيقية القائمة بين البورجوازية اليهودية والحركة الصهيونية وبالرغم من الاهمية الفائقة لمثل هذه الادلة التي تكشـف طبيعة العلاقات بين الطرفين فسأكتفي بهذا القدر منها خشية ان يتسرب السأم الى نفس القارىء .

الواقع اليهودي بعد انهيار الغيتو الغربي

وعلى أية حال ،ولغرض اضاءة الجانب الاخر من الصورة ، لابد ان نتعرف على عجل ، على واقع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي عاش في ظلها اليهود في بلدان اوربا الغربية منـذ اواسط القرن السابع عشر – تلك الظروف التي تعتبر سبباً جوهرياً اكثر مـن كاف ومعقول كـي تتخذ البورجوازية اليهودية الغربية ، الكبيرة منها

(٣٩) Weizmann. Chaim, Trial And Error, Hamish Hamilton, London, 2nd. Imp., 1949, P. 40.

والصغيرة على السواء موقف المعارض ، ليس فقط من الحركة الصهيونية وقيادتها ، وانما حتى من اليهود الشرقيين الذين بدأوا يتدفقون من اقطار اوربا الشرقية ، بعد احداث ١٨٨١ في روسيا ، مما دفع اثرياء اليهود الغربيين الى تنظيم حملات خيرية لتهجيرهم الى اميريكا اللاتينية وفلسطين ، وذلك للتخلص مما يمكن ان تأتي به من اضرار محتملة ، تلك الكتلة البشرية العتيقة من اليهود القادمين من عالم مازال يعيش في ظل الاقطاع ، والذين كانوا ، كما يقول دويتشر ،الكاتب اليهودي: « مازالوا يقومون بنوع من التجارة البدائية كالتي مارسها تجار القرنين السادس والسابع عشر ، وبقيت طقوسهم الدينية وشعائرهم قديمه وتنطوي على مفارقات تاريخية . »(٤٠)

اشرنا سابقاً الى ذلك الراي الذي يزعم ان البورجوازية اليهودية دخلت في صراع تنافسي حاد مع البورجوازية المسيحية اثر خروجها من الغيتو مما دفعها اخيراً الى تنظيم الحركة الصهيونية ، وذلك بهدف الخلاص من مزاحمتها عن طريق توفير

---

(٤٠) دويتشر . اسحاق ، اليهودي اللايهودي ، ترجمة ماهر كيالي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص / ٤٣ .

سوق وطنيه خاصة بها . وكان هرتزل قد ادعى قبل ذلك ، ان اللاسامية هي « ... ثمرة تحرير اليهود » من الغيتو ، حيث قال : « ففي الغيتو تطورنا بشكل ملحوظ الى شعب بورجوازي وخرجنا من الغيتو منافساً غير اعتيادي للطبقة الوسطى . »(٤١)

هل يتفق هذا الراي مع حقيقة الامر ؟

قبل الرد على هذا السؤال ، يبدو من المهم التعقيب على ملاحظة هرتزل هذه .

ان تمحيصاً دقيقاً لواقع المجموعة اليهودية، بعد حركة تحرير اليهود في اي بلد ، يبين لنا ان التركيب الاجتماعي لليهود والذي تقرره الوظيفة الاقتصادية ، قد بقي ، بصورة اساسية ، مثلما كان عليه داخل الغيثو ، في عهد النظام الاقطاعي ؛ حيث ان اليهود ظلوا يمارسون نفس النشاطات الاقتصادية ــ التعامل في سوق المال والتجارة . كل ما في الامر هو ان تراكم الثروات لديهم بصورة مستمرة عبر قرون طويلة من الممارسة في هذا المجال قد ادى الى ازدياد الغنى بشكل اسطوري لدى فئة معينة في الوسط اليهودي هي الشريحة

(٤١) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢١٨ .

العليا او مايعرف بالبورجوازية اليهودية الكبيرة او الراسمالية اليهودية . كما ادى من ناحية اخرى الى تأكيد التباين بين هذه الشريحة وبين الشرائح الاخرى التي ازدادت ، هي ايضاً ، غنى ، والتي تمارس نفس النشاطات الاقتصادية ولكن على نطاق أضيق ، والتي تعرف عموماً بالبورجوازية الصغيرة التي يدخل في تركيبها الى جانب مختلف انواع المرابين والمولين والتجار الصغار ، الكسبة والباعة والحرفيون والموظفون الخ ... وعند قيام الثورة الصناعية ، ومع تطور وسائل الانتاج وانتشار اساليب تكنولوجية جديده ، مما فتح فرصاً جديدة امامراس المال المالي ، فان راس المال اليهودي ، برغم انه اسهم بشكل فعال في حث وتطوير الانتاج الراسمالي ، قد اندفع بصورة رئيسية نحو ميدان عمليات التحويل الضخمة والمضاربات والسندات الحكومية والقروض والاستثمارات المالية . وهكذا .. ومثلما كان اليهود يتألفون بصورة اساسية من بورجوازية كبيره وبورجوازية صغيرة في عهد الغيتو ، فقد ظلوا محتفظين بنفس هذا التركيب الاقتصادي ـ الاجتماعي ، بعد خروجهم من الغيتو . وعلى اية حال ، لنعد الى الظروف الاقتصادية التي كانت تكتنف الوجود اليهودي في اوربا الغربية .

على غير مايتمنى هرتزل والمنظرون والمؤرخون الصهاينة ، فان التاريخ ليس من همه ان يشوه الوقائع مثلما يفعل قادة الحركة الصهيونية .

قد يكون حقاً .. ان موسى ، كما تروي الاساطير ، هو الذي قاد الخروج من مصر قبل ان يأتي المسيح . غير ان الخروج من الغيتو قد قادته البورجوازية المسيحية نفسها . ومن هنا فأنه يبدو من غير المعقول ان تحمل البورجوازية المسيحية المعاول لتهديم جدران الغيتو ، لو كان (الخروج الجديد) سيجلب لها المصائب .

ولكي تكون الصورة واضحة ومقنعة ، لابد من البحث عن اصول الاشياء ، ولابد من القاء شيء من الضوء بشكل عاجل على بعض الحقائق المرتبطة بنشوء وتنامي (الطبقة) البورجوازية اليهودية ، وعلاقتها بالبورجوازية المسيحية في غرب اوربا .

من المعروف ان البورجوازية اليهودية الكبيرة لم تولد في مجتمع يهودي صرف ، وانما ولدت ونشأت وتقوت في رحم المجتمع المسيحي ، الذي ولدت فيه الطبقة البورجوازية المسيحيه ايضاً . ومن المهم ان نلاحظ هنا ان نشوء واكتمال البورجوازية اليهودية ، لم يحدث نتيجة لتراكم الثروات لديها عن طريق اداء وظيفة اقتصادية

انتاجية ،وانما عن طريق ممارسة وظيفة اقتصادية ذات طبيعة خدميه وان كانت استغلالية ، وغير منتجة ـ التعامل في سوق المال والتجارة . وكانت الخدمات التي تقوم بها ، تقدم ، بشكل اساسي ، لمختلف الفئات الاجتماعية وفي مقدمتها الطبقـــة الارستقراطية الحاكمة في مختلف بلدان أوربا ، منذ هبوط اول المهاجرين اليهود ، بضعة قرون قبل الميلاد ، على شـــواطيء اوربــا . واســتمر اليهود في اداء نفس الوظيفة الاقتصادية بعد انتشار المسيحية في اوربا . لقد ظل المولون والمقرضون والتجار والمرابون والصيارفة والباعة الـخ ... اليهود يؤدون خدماتهم للمجتمع المسيحي طيلـة تلـك الفترة التي لم تكـن الطبقـة البورجوازيـة المسيحية قد تكاملت فيها بعد . وطيلة الفترة التي ساد فيها النظام الاقطاعي في أوربا الغربية ، لـم يكن من مصلحة اية جهة أن تشعر اليهود بأنهـــم ضيوف ثقـلاء . غير انه مع تزايد نمو وتصاعـد البورجوازية المسيحية التجارية ، واتخاذ حركة نموها مساراً يقود نحو تشكل كيان اجتماعـــي مترابط واضح المعالم ومحدد الأبعاد وله وظيفـه اقتصادية معينة ومصالح محددة ، اي طبقـــة اجتماعيـــة ـ اقتصاديـــة متبلـورة ـ اخـذت البورجوازية المسيحية تشعر انالمولين والمقرضين

والتجار الخ ... اليهود بمختلف فئاتهم وعلى تباين درجاتهم ، أصبحوا مصدر خطر جسيم عليها ، قد يعرقل نموها بل وحتى انه يمكن ان يقضي عليها قبل ان يشتد عودها ويتكامل نموها الى درجة تمكنها من الهيمنة اقتصادياً على المجتمع. في هذه المرحلة كان من الضروري ان تتخلص البورجوازية المسيحية المتنامية من ذلك المنافس الخطير الذي تمرس عبر قرون طويلة من التجارب في شؤون التجارة والمال ، ذلك المجال الذي كان ما يزال حقلا جديداً بالنسبة لها . فكان الاضطهاد الذي كثيراً ماكان يتوج بطرد اليهود وسلبهم اموالهم في بلد بعد اخر .وقد استمرت هذه الفترة فيما بين القرنين الثاني عشر تقريباً والسابع عشر . غير ان تكامل نمو البورجوازية المسيحية ، وبروزها كطبقة متميزة ومتماسكة ، وبعد هيمنتها على الاقتصاد واستيلائها على السلطة بعد تفتت وانهيار النظام الاقطاعي ،ومع اشتداد التنافس بين البورجوازيات الغربية ، ونتيجة لازدياد حاجة البورجوازية المسيحية الى مايدعمها مالياً ويعزز مكانتها الاقتصادية ـ الاجتماعية ، سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي ـ ان هذا كله دفع بالطبقة البورجوازية المسيحية التي بدات تتسنم السلطة في بلد بعد اخر ، الى ان تفتح ابواب بلدانها مجدداً

امام اليهـود . مـن هنـا نسـتطيع ان نتبين ان البورجوازية المسيحية التي تمرست هي الاخرى طيلة ما يزيد على اربعـة قرون في فنون التجارة والصيرفة والمال ، في غياب التاجر والممول اليهودي العريق ، لم تفتح ابواب بلدانها مجدداً امام اليهود، بدافع الفضيلة ، وانما لحاجة غير قابلة للتأجيل . لقد وجدت البورجوازية المسيحية نفسها عـلى ابواب مرحلة التوسع الاستعماري في اعقاب حركة الاستكشافات الجغرافية ، وازدهار الراسماليـة التجارية ، وهي تسير سيراً حثيثا نحو مرحلـة الثورة الصناعية والتطور العلمي في نفس الوقت الذي كانت تعاني فيه من اثار الدمار الاقتصادي الذيحل بغربيالقارة بسبب الحروب والصدامات المستمرة التي سادت هذا الجزء من اوربا منـذ اواسـط القرن السـادس عشـر . لقد ادركت البورجوازية المسيحية في مختلف بلدان القاره ان المنقذ الوحيد الذي يستطيع ان يمد لها يد الرحمة في صراعها ضد بعضها البعض ومن اجل التوسع الاستعماري انما هو الممول ، بصـرف النظر عـن انتمائه القومي او الديني . ولعل ادراكها لواقع ان الانتمـاء الديني قد تراجع عـن اهميتـه وتأثيره السابقين ، وان الدين لم يعد قضية تثير القلق ، قد جاء نتيجة الى ان البورجوازية المسيحية قد

بلغت ، هي نفسها ، درجة من القوة الاقتصادية والمالية والثقة بالنفس ـ مما ادى الى تلاشي مخاوفها السابقة من المنافسين القدامى ـ المولين والتجار والمرابين اليهود . وفي هذا يحسن بنا أن نعود الى ما قاله توينبي :

« ... انالممثلين المحليين للبورجوازية غير اليهودية التي اصبحت الان ، راسخة الجذور في الاقطار الغربية ، قد غدوا سادة متمكنين من الفنون الاقتصادية اليهودية الى درجة ان مخاوفهم التقليدية من الرضوخ امام المنافسة اليهودية لم تعد تكرههم على أن يضيعوا فرصة تجنيد القدرة اليهودية لخدمة اقتصادهم الوطني . »(٤٢) ومن هنا ، فقد تزعمت البورجوازية المسيحية الاوربيه الغربية نفسها حملة تحرير اليهود بدافع من حاجتها الاقتصادية والمالية ، وكذلك بدافع من الافكار والنظريات الفلسفية والعلمية الجديدة التي سادت غربي القارة ، والتي كانت تنصب اساساً على تحرير الفكر الانساني وتحرير الفرد باعتباره الوحدة الاساسية في المجتمع البورجوازي. وابتداء

---

(٤٢) Toynbee. Arnold J., A Study of History, Oxford University Press, London, 1963, P. 285.

من ١٦٥٦ حتى ١٨٧١ ، كانت جدران الغيتـــو تتهاوى ، في بلد بعد اخر ، في اوربا الغربية . وغدا اليهود مواطنين كاملين يتمتعون بكل حقوق المواطنه ولم يعد هناك من يريد ان يتصور ان الانســـان اليهودي شخص غير مرغوب فيه . العكـــس كان صحيحاً . فقد كانت البورجوازية اليهودية الاوربية تعيش عيداً اخضر ، وهي تتربع في قمة المجتمـــع البورجوازي الغربي وتشكل جزء حساساً وفعالا ، لايتجزأ ، من الارستقراطية الاوربيـــة . وما قاله ريتشارد هنري تاوني ، المفكر الاقتصادي يمكن أن يلقي ضوء ساطعاً على المكانـــة الرفيعـــة التي كان يحتلها اليهود في المجتمع الاوربي ، في تلك الحقبة :

« ... ولحكام المال جاء عاجلا ام آجلا ، جميـــع الدول .... قد يكتب الكتاب ان المسيح الجديد هو الأمير ، [وقد يقول] المصلحون ان الامير هـــو البابا . ولكن وراء الامير والبابا على السواء ، يقف في الملاذ الاخير ، ممولا دون تحيز ، هنري الثامن ، وادوارد الســـادس ، واليزابيث ، وفرانسيس ، وجارلس ، وفيليب ، مصرفي الماني صغير له فروع في كل عاصمة في اوربا ، يلعب في عالم المـــال دور قائد المرتزقـــة في الحـــرب ، ويمثل في المجـــال الاقتصادي الاخلاقية المجسدة في سياسة أمـــير

ميكافيللي . »(٤٣) . من خـلال هذا نسـتطيع أن ندرك الاهمية الكبرى التي استطاع ان ينتحلهـا المولون .. ومن خلاله ايضاً نستطيع ان نفسـر ظاهرة الجزر التي بدأت تعتري ما يعرف بالمشكله اليهودية منذ اواسط القرن السابع عشر . ومنذ ذلك العهد فصاعداً ، بدأ اليهود يحتلون مراكـز حيوية مهيمنة ، متزايدة النفوذ في الميادين الماليـة والتجارية والصيرفيـة في البلدان التي سـبق ان طردوا منها . فمثلا ، حين كانت تطرح مسـألة تعيين مصـرفي خاص بالبـلاط ، في برلـين ، كان بسمارك يصر على انه لايصلح لهذه المهمة غير مصرفي يهودي . فيتم اختيار واحد من اسرة بلايخروده (Bleichröder)(٤٤) . بل وحتى ان الامور تطورت الى مدى ان الاسر اليهودية المالية كانت تشكل « سلالات » مالية تسيطر سيطرة تكاد تكون كلية على الحياة الاقتصادية والمالية والصناعية في اوربا . « وكان اشهر الامثلـة على ذلك بالطبع ، بيت روتشـيلد ، تلـك السـلالة التي بـدأت في

(٤٣) Tawney. Richard Henry, Religion and the Rise of Capitalism, Penguin Books, London, 9th Edition, 1969, P. 87-88.

(٤٤) لاندس ، المصدر السابق ، ص / ١٩ ـ هامش (٢) .

فرانكفورت ، واستقرت ابان العقدين الاولين من القرن التاسع عشر في اسواق أوربا المالية العظيمة، وقد بسطت سيادتها بين ١٨٣٠ ـ ١٨٤٨ بوصفها، الملوك الذين لايجادل فيهم في عالم المال . »(٤٥) ويقول دافيد لاندس ،الاستاذ المشارك في جامعة كولومبيا، في بحثه القيم عن الحياة والبيوتات المالية في بلدان اوربا القرن التاسع ، وعن العلاقات الخفية التي كانت تتحكم في هذا المضمار : « وعلى اية حال ، فان اشدها خصباً هي المانيا ،التي كانت مأوى عدد مرموق من السلالات الدولية المصرفيه القوية التي كان معظمها يهودي . فقد كانت هناك [اسر] آل اوبنهايم ((The Oppenheims)) ، في كولون ، آل بامبـــرغر ((The Bambergers)) في مينز (Mainz) ، وآل هـــابـــرز ((Habers)) في كارلسروهة ، وآل هاينة ((Heine)) ووربرغ (Warburg) في هامبورغ ، وقبل كل هؤلاء ، فصيلة فرانكفورت التي تضـــم بالاضافة الى آل روتشيلد ، ال شتيرون (Stern) وشبايرز

---

(٤٥) لاندس ، المصدر السابق ، ص / ١٦ ـ ١٧ . وكملاحظة عابرة فان اسرة روتشيلد كانت تسيطر على الحياة المالية والاقتصادية في اهم العواصم والمراكز الاوربية ، مثـل لندن ، فينا ، باريس ، فرانكفورت الخ .

(Erlanger) وايرلانفـر (Speyers)
وغولدشمت (Goldschmidt) ، وشوشـتر
(Seligman) وسليغمان (Schuster)
مـن بين اخرين .(٤٦) ، لقـد شـكلوا مجموعـة استثنائية من المولين المغامرين العدوانيين الذين كانوا بين قادة اسواق النقد وراس المال آبان القرن الماضـي والـذين اسـتمروا في بعض الحـالات في امتلاك ثروة عظيمة حتى هذا اليوم . »(٤٧) .

لقد كان من الطبيعي ان تشاهد فصائـل المولين اليهود عند كل منعطف من منعطفات المال والتجارة والصناعة في اوربا . ولم يكن امرا مثيراً للاستغراب انتقوم اسر يهودية بتمويل نفقات بعض الحروب ، على ضخامة مثل هذه النفقات . اسرة روتشيلد مثلا قامت بامداد جيوش ويلينغتون (Wellington) بما تحتاجـه مـن اموال في حربها ضد نابليون ، لتصبح ببساطة « ... أعظم قوة فيالشؤون المالية الدولية بضمانها بعض الديون الناجمة عن حروب نابليون . »(٤٨) ويذكر الكاتب

---

(٤٦) من الاسر اليهودية المالية المشهورة نذكر اسرة مندلسون، وبايفوس وشنابر وساسون ، وهيرنس .

(٤٧) لاندس ، نفس المصدر ، ص / ١٧ .

(٤٨) لاندس ، نفس المصدر ، ص / ١٢ .

اليهودي الامريكي ، غرينبرغ ، (Greenberg)
الذي يذرف دموعاً غزيرة على وضع اليهود في اوربا ، بالرغم من محاولته الواضحة لان يكون موضوعياً يذكر انه : « ... حينما كان فردريك الكبير يحتاج الى الاموال ، فانه كان يعود دوماً اليهم [اليهود] ، طالباً المساعدة . فمثلا قام اليهود بتمويل حرب السنوات السبع ، وقد جمع بعضهم ثروات ضخمة . »(٤٩) ومن ناحية اخرى فقد تطوعت اسرة مندلسون لتمويل السندات الروسية للمستثمرين الالمان . وبعد الثورة الصناعية لم يدخر البورجوازيون اليهود وسعاً في محاولة انماء وتكديس الثروات الاسطورية بشتى الطرق وفي شتى المجالات : المناجم ، التعدين ، المصاهر ، السكك الحديدية ، مصانع الانتاج الحربي والمدني ، والمضاربات المالية ، القروض وكل مجال تستطيع ان تمتد اليه ايديهم لصناعة المال . ويعترف غرينبرغ بان مايزيد على نصف الانوال في مصانع نسيج الحرير ، و ٦٠٪ من انتاج الحرير المخزون في بروسيا ، كان مركزاً بيد اليهود .(٥٠) . وقد

---

(٤٩) Greenberg. Louis, The Jews In Russia, The Struggle For Imancipation, Ams Press Inc., 1973, Vol., I, P. 15.

(٥٠) غرينبرغ ، نفس المصدر ، ص / ١٥ .

يكون مهماً هنا ان نتذكر انه مثلما استطاع المولون اليهود من تجميع ثروات خيالية في اوربا الاقطاعية من خلال الخدمات الاستغلالية المالية التي كانوا يقدمونها للمسيحيين ، فان البورجوازية اليهودية في اوربا الصناعية ، استطاعت ان تضاعف ثرواتها عن طريق استغلال الطبقة العاملة (المسيحية) ، نظراً الى انه لم تكن قد تشكلت بعد طبقة عاملة يهودية . كما انها استطاعت ، من جهة اخرى ، عن طريق الترابط الوثيق بين راس المال اليهودي ورأس المال المسيحي ، من السيطرة على السوق المحلية الوطنية حيثما كانت ، بالاضافة الى انها استطاعت ان تبسط سيطرتها على اسواق المستعمرات في اسيا وافريقيا ، فيما بعد ، من خلال حركات الغزو الاستعمارية ، وعن طريق جيوش تتألف غالبيتها العظمى من جنود مسيحيين .

من خلال هذا نستطيع ان نتوصل الى نتيجة واحدة ، هي ان مصالح ومصير البورجوازية اليهودية في اوربا الغربية كانت مرتبطة ارتباطاً عضوياً غير قابل للانفصام بمصالح ومصير البورجوازية المسيحية . ولعل ماهو اكبر مغزى ، « ان العديد من المولين اليهود بصورة خاصة ، ضحوا بعقيدتهم من اجل مطامحهم الاجتماعية ،

وفعلوا كل ما في استطاعتهم من اجل ان ينفصلوا عن رفاقهم . »(٥١) في العقيدة .

واذن .. فمن الصعب جداً الموافقة على الرأي القائل بان البورجوازية اليهودية كانت تشكل منافساً خطيراً للبورجوازية المسيحية ، بعد خروجها من الغيتو . كما ان الأعتقاد بان البورجوازية اليهودية وجدت في الحركة الصهيونية وسيلة للتعبير عن مطامحها وتأمين سوقها الوطنية، بعيد كل البعد عن الامر الواقع . ومن هنا .. وبرغم ما اثير من ضجيج حول اللاسامية في اوربا الغربية، فانها اي البورجوازية اليهودية ، لم تفكر بالبحث عن وطن جديد . وربما كان ذلك بسبب من انها كانت تدرك جيداً ان بروز بعض مظاهر اللاسامية ابان العقدين الآخرين من القرن التاسع عشر ، في المانيا وروسيا وفرنسا ، انما كان من جهة ، وبالنسبة لالمانية ، مظهراً من مظاهر الصراع المرير الذي خاضته قوى الاقطاع المعروفة « باليونكرز » من اجل الحفاظ على مواقعها المتنفذة ومحاولة وقف تصاعد الطبقة البورجوازية والتطور الصناعي ، تساعدها في ذلك القوى الاكليريكية

---

(٥١) لانغس ، المصدر السابق ، ص / ٢٨ .

الرجعية ، مستغلة ظروف الازمة الاقتصادية التي نشبت في البلاد بسبب موجة المضاربات التي جاءت نتيجة للأنتعاش الأقتصادي الذي أعقب التعويضات الفرنسية لالمانيا بعد الحرب الالمانية ـ الفرنسية (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) ، والتي ، أي موجة المضاربات ، كان يقف وراءها المولون اليهود . اما بالنسبة لروسيا ، فهذا ما سنعود اليه فيما بعد . وكان من جهة اخرى ، وبالنسبة لفرنسا ، جزء من الهجمة العامة التي تعرضت لها قضية الديمقراطية بكاملها . ولابد ان البورجوازية اليهودية كانت قد قرأت بيان الروائي الفرنسي الكبير اميل زولا الموسوم بـ « اني اتهم » ، الذي اصدره بعد اربع سنوات من إلقاء الضابط « درايفوس » سجيناً في جزيرة الشيطان ـ ذلك البيان الذي أدى الى سلسلة من المحاكمات والاحداث التي هزت اسس النظام الفرنسي ، حيث هب نصف الامة الفرنسية مدافعاً عن ضابط يهودي صغير « ... كان قد قطع كل الصلات التي تربطه بدين اجداده . »(٥٢) ولكنه بريء اخيراً ؛ فيما فقد الضابط الفرنسي (المسيحي) الذي لفق التهمة ضده ، شرفه

---

(٥٢) ستيوارت . دزموند ، هرتزل ، ترجمة فوزي وفاء وابراهيم منصور ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٤ ، ص / ١٩٥ .

العسكري الى الابد ،بعد ان أقدم على الانتحار حين افتضح أمره . كما ان البورجوازية اليهودية لابد كانت عالمة بان ولي عهد المانيا وزوجته قد ادانا الموجة اللاسامية باعتبارها عاراً على المانيا ، فيما أصدرعدد من المفكرين الالمان بياناً يشجب اللاسامية ويعتبرها امراً مضراً بالبلاد .

ومن ناحية اخرى ، واذا ما انتقلنا الى صعيد البورجوازية اليهودية الصغيرة ، ففي سوق العمل، فتحت المستشفيات والجامعات والمدارس والمحاكم والمكاتب الحكومية والاهلية ، واسواق البيع بالمفرد والجملة والمصارف والخ ... ـ فتحت ابوابها امام الاطباء والاساتذة والمدرسين والمحامين والموظفين والباعة والتجار اليهود ، دونما تمييز . وقد يكون من الطريف في هذا الصدد ، ان نعيد للاذهان جانباً من الحديث الذي دار في مقابلة هرتزل مع ملك ايطاليا من اجل تأييد ايطاليا لقضية انشاء وطن قومي لليهود لانقاذهم من الاضطهاد والتميز !! قال الملك :

« نحن لانفرق فيبلادنا بين اليهود والمسيحيين يمكن لليهود ان يكونوا في كل شيء ، في الجيش وفي الاعمال الحكومية وحتى السلك الدبلوماسي ـ كل المجالات مفتوحة امامهم . ومع انه بالنسبة الى

عددهم يجب ان يكون لهم مقعد واحد في البرلمان او ربما نصف مقعد فان لهم ثمانية عشر مقعداً . وقد كان لهم تقريباً وزير في كل وزارة . »(٥٣)

ثم .. هناك مسألة في غاية الاهمية هي التي حددت الموقع الاجتماعي الذي كان يتمتع به اليهود في اوربا الغربية ، وبالتالي . رفضهم للحركة الصهيونية : تلك هي ــ البنى الطبقية التي كان ينتمي اليها اليهود . فاليهود كانوا حتى القرن التاسع عشر ينتمون بدرجة رئيسه الى طبقتين : البورجوازية الكبيرة ، والبورجوازية الصغيرة ؛ وكلاهما طبقة غير منتجة . اما الطبقة العاملة فان الحديث عن اقامة وطن قومي يلم شعثها ليكون بمقدور البورجوازية الكبيرة ، بالتالي ، ان توحد القوى الانتاجية اليهودية المبعثره تحت راية سياسة واحدة ، يبدو نوعاً من مفارقة تاريخية ؛ حيث أن الطبقة اليهودية العاملة لم يكن لها انذاك وجود محسوس ، اذ انها كانت ماتزال في مرحلة جنينية. وكما يقول دويتشر فانه « لم يكن هناك عمال يهود في اوربا الغربية وان وجدوا فهم قلة . »(٥٤) أما اولئك الذين اضطروا الى الانخراط في صفوف

---

(٥٣) هرتزل ، اليوميات ، ص / ٣١٨ .

(٥٤) دويتشر ، المصدر السابق ، ص / ٤٦ .



« تصدرهم » الى البرازيل او الارجنتين ، مثلما فعل البارون دي هيرش ؛ وفي أحسن الاحوال ، ان تقيم لهم مستعمرات خيرية في فلسطين ؛ كما فعل روتشيلد . وليس من الحكمة في شيء ، بالتأكيد ، لو ان البورجوازية اليهودية ذات الطابع الكوزموبوليتاني ، فكرت بالدخول في معركة مع حليفتها البورجوازية المسيحية لأنشاء سوق وطنية خاصة بها ، في الوقت الذي كانت فيه اسواق القارتين الاسيوية والافريقية ، اضافة الى أسواق اوربا واميريكا واستراليا ، قد فتحت أمام منتجات المصانع التي يمتلكها او يمولها اليهود ، الى جانب حقيقة ان البورجوازية اليهودية استطاعت الوصول الى أعمق مناجم أسيا وافريقيا وغاباتهما حتى قبل ان يولد عامل يهودي واحد ، ودون ان تطلق رصاصة يهودية واحدة .

ثم هناك مسألة هامة اخرى : اذا كانت الدول الاستعمارية تستهدف السيطرة على البلدان الاخرى بوصفها مصادر للمواد الخام واسواقاً لتصريف البضاعة المصنعة ، واستثمار الرساميل الفائضة ، واذا كانت البورجوازية اليهودية قد استطاعت بوصفها جزء من الرأسمالية العالمية ، ان تحقق ذلك ، وبنجاح كبير منذ اوائل القرن الثامن

عشر ، عن طريق الجيوش الاوربية الغازية ؛ فهل من المعقول ان تفكر تلك البورجوازية اولا ـ بالانفصال عن البلدان التي كانت تحقق المصالح اليهودية بجنود مسيحيين عموماً ؛ وثانيا ـ بتكوين سوق وطنية محدودة القدرة في (وطن قومي) متخلف ، عن طريق الصهيونية التي لم تكن تملك انذاك ، وبكلمات هرتزل ، غير « ... جيش من الشباب والشحاذين والحمقى .. »(٥٦) واذا كان لدى البورجوازية اليهودية أدنى رغبة في الحصول على فلسطين ،او اي بلد اخر ، لانشاء (وطن قومي) فانه سيكون بعيداً عن المنطق تماماً ، لو انها فكرت **بجعل هرتزل ، ابن تاجر الخشب الصغير في** بودابست ورفاقه الصهاينة القادمين من الغيتو الشرقي ، وسطاء بينها وبين حكومات الدول الاستعمارية في وقت غدا فيه رأس المال اليهودي قوةعالمية متنفذة تستطيع انتحرك خيوطالسياسة الدولية بالاتجاه الذي تريد دونما جهد كبير ، ودون أن تخشى ان يرفض لها طلب ، وفي الوقت الذي كان العديد من الشخصيات اليهودية يحتل

---

(٥٦) Menuhen. Moshe, The Decadence of Judaism In Our Time, The Institute For Palestine Studies, Beirut, 1969, P. 24.



الاقل في غرب اوربا . »(٦٠) وانطلقت حركة الاصلاح الديني التي استشرت في اوربا الغربية واميريكا داعية الى نبذ التفسيرات والطقوس والمعتقدات الجامدة ، وتهيئة الفرد اليهودي لحياة جديدة بوصفه مواطناً في البلد الذي يولد ويعيش فيه . ومن الاسماء التي تزعمت هذه الحركة موسى مندلسون ، وأرون بيرنشتين ، وكيريل رايسر ، وابراهام كايجر ، وتشارلستون هاربي ، واسحاق وايز ، وصموئيل هولدهايم ، واميل هيرمش و ج . م . فايس وغيرهم .

وفي عام ١٨٨٥ عقد في بتسبرغ (امريكا) مؤتمر يهودي اتخذ فيه المؤتمرون قراراً يؤكد : « لن نعتبر بعد اليوم اننا نكون امة ما .. بل نعتبر انفسنا نؤلف طائفة دينية ، ولهذا فنحن نقرر اننا لانرغب بالعودة الى فلسطين ، ولانريد استعادة أرض الميعاد لأقامة دولة عليها ... »(٦١)

كما انه في عام ١٩١٩ ، وبعد سنتين من صدور اعلان بلفور ، وقبل انعقاد مؤتمر السلام

---

(٦٠) دوينتشر ، المصدر السابق ، ص / ٣١ .

(٦١) ليلينثال . الفريد ، ثمن اسرائيل ، ترجمة حبيب نحولي وياسر هواري ، المكتب التجاري بيروت ، ١٩٥٤ ، ص / ٢٠ .

الذي كان من المقرر ان يبحث المسألة اليهودية وفلسطين ، قدم النائب الامريكي اليهودي كان (Kahn) عريضة باسم ثلاثين شخصية يهودية الى الرئيس الامريكي ويلسن ، اعرب فيها عن معارضه اليهود للصهيونية ومشروع انشاء دولة يهودية في فلسطين .

لقد كانت حركة الاصلاح الديني والاندماج تجري بوتيرة مذهلة الى درجة جعلت جاكوب كلاتزكين ، الزعيم الصهيوني (١٨٨٢ – ١٩٤٨) يقول : « انني اعتقد ان الاندماج الكلي لشعبنا ممكن . ان الاندماج يسري بسرعة اعظم ابدا بين قطاعات شعبنا وان تأثيره يصبح أبداً اكثر عمقاً . »(٦٢) . اما هرتزل فلم يكن ليتردد عن الاعلان عن النتائج التي يمكن ان تنجم عن وجود ظروف معيشية اعتيادية بالنسبة للمواطنين اليهود في المجتمع الاوربي ، بالرغم من احاديثه التي تفصح عن هوس محموم، عن المشكلة اليهودية، واللاسامية التي يحب دوماً ان يتصور انها مشكلة ازلية قائمة ابدا طالما كانت هناك عقيدة يهودية . يقول هرتزل :

---

(٦٢) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٣٢١ .



عشر . كان اليهود يتحركون في نطاق الارستقراطية الشرقية .. وكان عدد منهم يتولى مناصب رفيعة. بل ان التاريخ يحدثنا عن انه لم يكن هناك ما يجعل انتخاب ملوك يهود أمراً غير اعتيادي في روسيا وبولونيا ابان القرنين التاسع والسادس عشر ، كما يخبرنا المفكر اليهودي موشي مينوهين .(٦٤) وكان المولون اليهود يسيطرون على قطاعات هامة من الاقتصاد في اوربا الشرقية ، مثل المصرفي الكبير ليفكو ، في كاراكوفيا ،الذي كان يمول ملوك المملكة الهنغارية ، كما كان يقوم بسك النقود ، ويحتكر ممالح فلزكا وبوشينا ، وفوض ادارة (قصر أموال) كاراكوفيا . وكان ايضاً أمين خزانة ثلاثة ملوك بولونيين . وبسبب من المكانة الرفيعة التي بلغها في عالم النقد والمال ، أنعم عليه بلقب « الرجل المميز »(٦٥) ولم يكن امراً استثنائياً ان تقف المحاكم في القضايا التي ترفع اليها ، الى جانب المرابين والمولين اليهود الذين تنتقل اليهم ملكية اراضي النبلاء حين يعجز هؤلاء عن الوفاء بديونهم ، ويحاولون استعادة اراضيهم بطريق القوة . ولم تكن المحاكم لتتردد في ان تفرض على النبلاء غرامات

---

(٦٤) مينوهين ، المصدر السابق ، ص / ٢٦ .

(٦٥) ليون ، المصدر السابق ، ص / ١٢٦ .

مالية كبيرة لصالح المرابين اليهود .(٦٦) ولم يكن هذا الوضع المتميز مقتصراً على اثرياء اليهود ، إذ ان اليهود عموماً كانوا يتمتعون بامتيازات لم يكن يحلم بمثلها الملايين من جماهير اوربا الشرقية حيث أدت المكانه التي كانوا يحتلونها في عالم المال والأقتصاد الى ان يشكلوا دولة ضمن دولة . لقد كانوا يتمتعون بما يشبه استقلالا داخلياً ، حيث كان لكل مدينة او قرية يهودية مجلس خاص ، يسمى « الكاحالا » ، يدير شؤونها . وفي بولونيا ، وبموافقة السلطات ، كان مايسمى (Vaad Arba Arazoth) « مجلس الاراضي الاربع » يدير الشؤون اليهودية . وكان هذا المجلس يضم ممثلين عن بولندا الكبرى ، وبولندا الصغرى ، وغاليسيا، وفولينيا (Volhynia) . وكما يقول ليون ، فان حماية اليهود في اوربا الشرقية « اتخذت ... مقاييس غير مألوفة في ذلك العهد . ففي عام ١٥٠٤ صرح ملك بولونيا بانه يتصرف مع اليهود ، كما يليق بالملوك والعظماء الذين يجب ان لا يتميزوا فقط بسماحتهم حيال المسيحيين ، بل ايضاً تجاه معتنقي الاديان الاخرى . »(٦٧) فيما أصدر

---

(٦٦) يورد ليون امثلة عدة حول انتقال ملكية اراضي النبلاء الى المرابين اليهود ، يستطيع القاريء العودة اليها .

(٦٧) ليون ، نفس المصدر ، ص / ٩٩ .



ومن بين اشهر المولين اليهود افزيل غونزبرغ (Evzel Günzburg) ، [منحه دوق هيس ـ دار مشتات ، لقب بارون] الذي قام بانشاء أول مؤسسة مصرفية اهلية في روسيا . وكانت هذه المؤسسة تقدم المعونة المالية للحكومة في مشاريعها خارج البلاد ،كما كانت تقدم القروض لبناء السكك الحديديه وابراهام زاك (Abraham Zack) ، وكان رئيساً لاقوى مصرف تجاري في بيترسبرغ . وقد عين مساعداً لوزير المالية ، كما كان يعتبر مرجعاً استشارياً ترجع اليه المؤسسات واللجان الحكومية في شؤون بناءالسكك الحديد .

ومثلما اندفع المولون والاسر اليهودية الثرية في أوربا الغربية نحو بناء الخطوط الحديد ، كذلك فعل المولون اليهود في روسيا . ومن بين هؤلاء ساموئيل بولياكوف (Samuel Poliakov) الذي كـا يلقب ب « ملك السكك »(٧١) حيث قام ببناء العديد من الخطوط الحديد ، واسس اول مدرسة للسككالحديد فيروسيا واعترافاً بجهوده، فقد اصبح نبيلا ، ومنح لقب مستشار خاص

---

(٧١) غرينبرغ ، نفس المصدر ، ص / ١٧٣ .

(Privy Councilor) كما منح شقيقان له ، نفس اللقب . ومن بين الذين ساهموا ببناء السكك، الممول اليهودي ايفان بليوخ (Ivan Blioch) .

ان اليهود لم ينشطوا في الميدان التجاري والمالي حسب ، وانما كان هناك عدد لايستهان به منهم ممن لعبوا دوراً له اهميته في مختلف جوانب الحياة العامة . فكان هناك من عمل في السلك القضائي والمحاماة والتدريس في الجامعة والطب والادارة والخ ... كما اسهم عديد منهم في الحياة الثقافية الفكرية والادبية والفنية ، وفي مجال العلوم . والجدول الاحصائي التالي يبين لنا مجاميع الحرف والاعمال التي كان يمارسها اليهود ، كما يعكس لنا الاوضاع الاقتصادية التي كان عليها يهود روسيا (١٨٩٧) . وقد جمع استناداً الى ثلاثة جداول احصائية منشورة في كتاب :

Isaac M. Rubinow, Economic Condition Of The Jews In Russia, Arno Press, New York, 1975, PP. 498 - 500.

مجاميع الحرف	العدد	النسبة المئوية
اعمال زراعية (بما فيها تربية المواشي وشجير الغابات الخ ..)	٦١١ر٤٠	٩ر٢
خدمات حرفية (ادارة قضاء ، بوليس ، بلديات، خدمة مدنية محلية ، محاماة ، رجال دين ، معلمون ، ادب ، فن ، ثقافة ، علوم ، طب ، صحة)	٩٥٠ر٧١	٠ر٥
خدمات شخصية (فنادق ، مطاعم ، تنظيف ، حرف غير محدودة)	٤٦٦ر٢٧٧	٤ر١٩
اعمال صناعية وميكانيكية (مناجم ، صهر معادن ، انتاج حيواني ، نجارة ، نسيج صناعة المعادن ، خزف صناعات كيمياوية كحولية ، غذائية ، تبوغ ، طباعة ، ورق ملابس مجوهرات، أدوات رسم. الخ...)	٥٦٣ر٥٤٢	٩ر٣٧
مواصلات (سكك ، نهرية ، عرباب بريد ، برق ، تلفون)	٩٤٤ر٤٥	٢ر٣
تجارة (مؤسسات الاعتماد والتامين ، وسطاء ، تجارة عامة ، تجارة المواشي والحبوب والمنتجات الزراعية والمواد الانشائية والمعادن ومختلف انواع البضائع والنسيج ، الملابس ، الفراء ، الجلود ، باعة متجولون ، وتجار كحول .)	١٩٣و٤٥٢	٦و٣١
المجموع	٧٢٧ر٤٣٠ر١	٠ر١٠٠

ومثلما حدث في اقطار اوربا الغربية في اعقاب حركة تحرير اليهود ، حيث انطلقت حركة الاصلاح الديني والدعوة الى الاندماج الثقافي ، واعتبار اليهود مواطنين في البلدان التي يولدون فيها ، فان الظروف الاقتصادية ليهود روسيا ، أدت الى تطورات مماثلة حيث قامت حركة واسعة النطاق ومتزايدة المدى تنادي بالاصلاح الديني والدعوة الى الاندماج الثقافي والقومي في المجتمع الروسي . وغدت الصيحة التي اطلقها الشاعر اليهودي غوردن (Gordon) : « كن يهوديا في خيمتك ، ورجلا في الشارع . »(٧٢) شعار حركة التنوير اليهودية، في روسيا .

قد يبدو ماأوردته من اسانيد ومقتبسات نمطاً من الكتابة الانتقائية ، التي تتغافل عادة عما لايتلاءم واغراضها . غير ان الامر ليس كذلك . فأنا

ملاحظـــة :ـــ

يبلغ عدد اليهود العاملين واسرهم ، يضاف لهم قرابة مائة الف يهودي لم يدرجوا في هـــذا الجدول (مساجين ، عاطلين ، منتفعين من جمعيات خيرية الخ ..) (٥٫٠٦٣٫١٥٦) نسمة ، وهو عدد اليهود في روسيا انذاك . والمجموع الكلي اعلاه يشمل العاملين واسرهم .

(٧٢) غرينبرغ ، المصدر السابق ، ص / ١٢٠ .

لااريد ان ازعم انه لم تكن هناك بعض مظاهر الاضطهاد في فترات زمنية معينة ـ تلك المظاهر التي ينبغي الاتفسر في ضوء المقولات الميتافيزيكية ، وانما في ضوء طبيعة النشاط الاقتصادي الذي يمارسه اليهود ، ودور واثر هذا النشاط بالنسبة لمختلف فئات المجتمع ضمن ظروف نوعية تاريخية محددة . ولا اريد ان ازعم ، من جهة اخرى ، بان جميع اليهود كانوا يتمتعون بمستوى اقتصادي ـ معيشي عال ، وانهم جميعاً كانوا يتحركون في الوسط الارستقراطي الروسي . فقد كان هناك برغم التماثل في النشاط الوظيفي الذي كان يمارسه اليهود ، شرائح تتباين درجة من ناحية التخصص والممارسة . فقد كان هناك اثرياء يهود يحتلون المراتب العليا في سلم المال والاقتصاد. وكان هناك تجار ومرابون وصيارفة صغار يحتلون مواقع دنيا . كما كان هناك حرفيون بدائيون وكسبه صغار وباعة متجولون الخ ... غير ان ما كانت تعانيه الفئات الدنيا من اليهود من ضغوط ومصاعب اقتصادية ، كان يتجاوب والمستوى الاقتصادي العام في روسيا القيصرية ، ولم يكن حظ اليهود وحدهم . ان اليهود ، بالاحرى ، كانوا في وضع افضل بكثير مماكانت تعانية الغالبية الساحقة من

الشعب الروسي البائس . ولنا فيمايورده غرينبرغ من مقارنات في هذا الصدد ، مايؤيد هذا . يستند غرينبرغ الى دراسة احصائية قام بهما الممول اليهودي ايفان بليوخ ، انف الذكر ، والذي يستند بدوره الى المعلومات التي قامت بجمعها خلال فترة خمسة اعوام ، لجنة حكومية خاصة عينت عام ١٨٨٣ ، لدراسة واقع اليهود خلال مائة عام يقول غرينبرغ ان دراسة بليوخ تظهر ان عشر الاسر الفلاحية داخل المستوطنه اليهودية (Pale) كان في « حالة ممتازة » ، بينما لم يعثر على اية اسرة فلاحية في المناطق المجاورة في مثل هذه الحالة الاقتصادية . وفي تلك الحالات التي وصفت بانها « جيدة جداً » ،كان (٩ر٢٣٪) من الاسر الفلاحية في المناطق اليهودية ، بالمقارنة مع ٥ر٠٪ فقط في المناطق المجاوره . اما ماوصف بـ « حالة جيدة » ، فكانت النسبة داخل المستوطنة اليهودية (١ر٤٨٪) بالمقارنة مع (٨ر١٣٪) في مثل هذه الحالة فيأحدى عشرة منطقة مجاورة للمستوطنة . اما « الحالة المتوسطة » ، فقد كانت النسبة داخل المستوطنة (٥ر١٨٪) ، وفي المناطق المجاورة (٢ر٦٦٪) . اما بالنسبة لما وصف « بحالة غير مرضية » ، فلم يعثر على اية اسرة بهذه الحالة داخل المستوطنة اليهودية ، في الوقت الذي بلغت فيه النسبة في هذه

الحالـة خارج المسـتوطنه (١٩٫٤٪) وتتناول الأحصائية المواشي فتقول انهابتداء من عام ١٨٥٦، لغاية اواسط الثمانينات ، كان الانخفاض في عدد المواشي في المناطق التي يسمح لليهود بالعيش فيها، أربع مرات اقل من مثيله في تلك المناطـق التي لا يسمح لليهود بالعيش فيها . اما بالنسبة لاحتياطي التجهيزات الغذائية ، فقد كان الاحتياطي داخل المناطق اليهودية أعلى منه خارجها بمقدار مرتين ونصف ، وان النقد المخصص لمثل هذه التجهيزات في المناطق اليهوديـة ؛ كان يعادل ضعف مثيله في غيرها .(٧٣)

وعلى أية حال ، فان الامور لم يكن مقدراً لها انتسير بنفس الاتجاه الذيكانت تسير فيه ،وخاصة بعد حركة الاصلاح الاقتصـادي ـ الاجتماعي في ستينات القرن . لقد بدات روسيا الاقطاعيـة بالتفتت معبدء زحف التطور الصناعي . ومثلمـا بدات مواقع اليهودية في اوربا الغربية بالاهتزاز ، عند بدء نشوء طبقة بورجوازية مسيحية ، اخذت مواقع اليهود في العقدين الاخيرين بالاهتزاز ايضاً ، في روسيا القيصرية ، وخاصة بعد اغتيال القيصر الاسكندر الثاني من قبل عناصر كان من بينها بعض

---

(٧٣) فرينبرغ ، نفس المصدر ،المجلد الاول ، ص / ١٦٨ـ١٧٠

اليهود . ويعلق ليون علـى بدء مصاعب اليهود في روسيا بقوله : « لم يبدأ بؤس اليهود في روسيا الا منذ تدمير العبودية والنظام الاقطاعي للملكيه الريفية وقد وجد اليهود امكانيات واسعة للاستمرار كتجار ووسطاء ، طوال المدة التي سيطرت فيها العبودية والاقطاع . »(٧٤)

عند هذا المنعطف ، وجد اليهود الروس انفسهم وجهاً لوجه امام مشكلتهم القديمة : البحث عن ملجأ جديد . وبالرغم من ان الدعوة بدأت ترتفع لحث اليهود على الهجرة الى فلسطين ؛ وبالرغم من ان الصهيونية بدأت تمارس نشاطها وتبث دعوتها في مختلف الاوساط الاوربية ؛ وبالرغم من ان جموعاً من المغامرين من شتى البلدان الاوربية كانت ، في تلك الحقبة ، تتدفق نحو الشرق ـ نحو مصر(٧٥) ، على وجه التخصيص (والتي هي على اية حال ، قريبة من فلسطين من عدة وجوه ،

---

(٧٤) ليون ، المصدر السابق ، ص / ٣٤ .

(٧٥) يذكر لانس في بحثه القيم اعلاه ، ان متوسط عدد القادمين الى مصر بدأ منذ سنة (١٨٥٧) بالارتفاع من (٣٠٠٠٠) شخص سنوياً ، حتى بلغ (٨٠٠٠٠) شخص سنة (١٨٦٥) ، حيث هبط الرقم الى (٥٠٠٠٠) سنة ١٨٦٦ . المصدر السابق ، ص / ٨٧ ـ ٨٨ .

وتشكل جزء من « الامبراطورية الاسرائيلية » طبقاً للتوراة وميثاق الرب) وذلك بحثاً عن الاثراء السريع ؛ فان اخر موجات الهجرة اليهودية من اوربا اختارت الطرق المؤدية الى اميريكا واستراليا وجنوب افريقيا ، وليس الى فلسطين أو اي بلد اخر من بلدان المنطقة ، مع ان ذلك الاختيار ، عرضهم الى هزة اقتصادية جذرية عنيفه ، حيث انهم وجدوا انفسهم فجأة في مواجهة ظروف تحتم عليهم الانتقال من واقع اقتصادي اعتادوا العيش ضمنه قروناً بكاملها ، الى مواقع وظيفية جديدة كلياً والانتماء الى تركيبات وبنى اجتماعية ـ اقتصادية لم يعهدوها من قبل ، وذلك كنتيجة حتمية لانتقالهم من واقع اقطاعي متخلف الى مجتمعات متطوره اقتصادياً وصناعياً . لم تكن بحاجة الى الممارسات البدائية الضرورية التي كان يتعاطاها اليهود في روسيا القيصرية . هذا فيما ان بلدان الشرق عموماً ، كان يمكن ان تؤمن لهم الاستمرار لفترة طويلة في ممارسة وظيفتهم التقليدية براحة كلية في ميدان المال والتجارة . وحتى بعد صدور اعلان بلفور ، فان اليهود الذين كانوا يضطرون ، لسبب او لاخر ، الى الهجره من اوطانهم ، لم

يختاروا النزوح الى فلسطين ، وانما اتجهوا الى اميركا بصورة رئيسية . من هنا نستطيع ان ندرك اسباب القلق الذي انتاب وايزمن حين وقف يعلن في رومانيا (١٩٢٧) خلال الحملة التي نظمتهـــا الصهيونية من أجل حث يهود العالم على الهجرة الى فلسطين ، بعد عشرة اعوام من صدور اعــلان بلفور : « انهم [الحكومة البريطانية] يعرفون ان اليهود كانوا ضدنا ، اننا كنا نقف بمفردنا ، فوق جزيرة صغيرة ، مجموعة صغيره مـــن يهود ذوي ماضي اجنبي . »(٧٦)

واستكمالا للصورة ، قد أجد لنفسي مبرراً للعوده قليـــلا بالقارىء الى الوراء .. الى العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ، لاستجلاء موقف اليهود الروس من الصهيونية ، وسأترك لغرينبرغ، ان يوجز ذلك الموقف . فيقول :

« منذ البداية تماماً ، قابلت الصهيونيـــة معارضة قوية في الوسط اليهودي . وكان جانب منها [اي المعارضة] لأسباب ايديولوجية ، فيمــا كان اخر ســـببه الخوف . لقد حارب البونديون

(٧٦) مينوهين ، المصدر السابق ، ص / ٨٨ .

الصهيونية ،نظراً الى انهم اعتبروها محاولة لحرف اهتمام الجماهير عن الصراع الطبقي الذي كان برأيهم اهم وسيلة للخلاص النهائي للبروليتاريا اليهودية . اما الاندماجيون ، فقد نظروا الى الصهيونية بتجهم نظراً الى انها تؤخر العملية التي كانوا يرون فيها مفتاح المشكلة اليهودية . ونظر اليهود الاثرياء الى الحركة بازدراء لأنهم كانوا بالدرجة الرئيسية يخشون ان تطعن في وطنيتهم ، وتجعل من وضعهم كمواطنين ، أقل أماناً . ومع استثناءات قليلة ، فان الطبقات العليا في كل بلد كانت اما غير مكترثة او معادية . »(٧٧)

واذن .. واذا كانت هذه هي الصورة العامة لواقع التجمعات اليهودية في اوربا الشرقية والغربية ، وموقفها من الحركة الصهيونية ؛ واذا كانت الحقائق التي اوردناها اعلاه تؤكد ان الاعتقاد بتحويل فلسطين الى ورشة عمل وسوق وطنية للبورجوازية اليهودية انما هو اقرب الى وهم مفترض من كونه حلا لمشكلة لم تكن قائمة بالشكل الذي اعتاد العالم ان يراها به ؛ واذا كانت جماهير

(٧٧) غرينبرغ ، المصدر السابق ، المجلد الثاني ، ص / ١٧٣ .

المهاجرين من اوربا الشرقية عند منعطف القرن وخلال العقود الاولى من هذا القرن قد وجدت حلا لمشكلتها عبر الاطلسي وفي جنوب افريقيا واستراليا ؛ واذا كانت « ... الاغلبية العظمى من يهود اوربا الشرقيين ، ... حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، من المعارضين للصهيونية . »(٧٨)

فمن بقي من اليهود كي يتبنى الفكرة ، فالحركة الصهيونية ؟ ما هي دوافعها ؛ ومن كان يقف وراءها ؟

الصهيونية حقيقة استعمارية

عدا عما يعتقده البعض من ان الحركة الصهيونية قد برزت الى الوجود كأحتجاج ضد الحركة الاندماجية ، كما يقول دويتشر : « مهما يكن من امر ففي نهاية القرن كانت « هوية اليهود المحددة ايجابياً » تمر في طور الانحلال . والحقيقة ان الصهيونية برزت الى الوجود كاحتجاج ضد هذا الانحلال ... »(٧٩) اوكما يعلن ناحوم غولدمان: « كان هدف الدولة اليهودية صيانة الشعب اليهودي الذي كان يتعرض لخطر التحرير (من

---

(٧٨) دويتشر ، المصدر السابق ، ص / ٤٦ .

(٧٩) دويتشر ، المصدر السابق ، ص / ٣٠ .

الغيتو) والاندماج »(٨٠) ــ عدا عن هــذا فانني لا اريد ان اتصور ، عند بحث اسباب بروز الحركة الصهيونية ، بأني سوف لا اعيد تكرار حقيقة لــم تعد خافية . ومع ذلك ، فقد يكون ملائمـاً لــو استعدنا بعضاً من احداث شهدتها مؤســســات اخذت على عاتقها ، ابان القرن التاسع عشر ، مهمة رعاية المصالح الامبريالية البريطانية .

ولندع جانباً ، ولكن بصورة مؤقتة ، مقــر وزارة الخارجية البريطانية ، التي انطلقت منها اخر دعوة لاسكان اليهود في فلسطين ، وننطلق فيمحاولة الرد على تلك الاسئلة ، من مواقع تطل على البحر الابيض المتوسط ، فرنسا اولا ، التي تحتل موقعاً اقرب من ذلك الذي تحتله بريطانية ، بالنسبــة للهند والشرقين الاوسط والاقصى ؛ ومصر ثانياً ، التي تشكل مع بقية البلدان العربية امتداداً أرضياً يبدو اشبه بجسد عازل يقع ما بين بريطانيا والهند والشرق الاقصى . وتجنباً لتكرار حقائق ووقائع تاريخية معروفه ، لانريد ان ندخل في تفاصيــــل

(٨٠) Taylor. Alan R., A Prelude to Israel, An Analysis of Zionist Diplomacy 1897-1948, Philosophical Library, Inc., New York, 1959, P. 2.

العلاقة التنافسية المميتة بين فرنسا وبريطانيا من اجل السيطرة على المنطقة . غير انه لابأس انتذكر ما كان يؤكد مخاوف بريطانيا ويرفع درجة قلقها الى حد الارق المستبد ، ان محمد علي الذي كان يحظى بتأييد فرنسا ، كان يسعى الى اقامة امبراطورية قوية جديدة عند ملتقى القارتين : اسيا وافريقيا . وبطبيعة الحال فان الاخطار التي يمكن ان يسببها هذا الطموح اضافة الى موقع فرنسا الجغرافي اولا ، ولدى بلاط محمد علي ثانياً ، بالنسبة للمصلحة الاستعمارية البريطانية ، ليست غير مفهومة . وعليه ، فقد بدأت بريطانيا تفكر بشكل جدي باعادة محمد علي الى حجمه الطبيعي ، وكان المفتاح الرئيس الذي يجعل بمقدورها ان تنفذ خطتها تلك ، خلقمبرر او ذريعة للتدخل في المنطقة وفي هذا يقول ستيوارت : « ان اللورد بالمرستون ، مهندس سياسة بريطانيا في القرن التاسع عشر ، كان يشعر الان بأسف لانه لم تكن هناك في فلسطين العامل الحاسم بالنسبة اللامبراطورية الجديدة ، اقلية ملائمة تستطيع بريطانيا انتتخذ من حمايتها ، ذريعة لطرد المصريين . (ان حججاً مماثلة كانت تستخدم من قبل قوى اخرى في اقاليم اخرى من الامبراطورية العثمانية ، ففرنسا مثلا كانت تستغل

العلاقة التقليدية مع المسيحيين المارونيين الذين يعيشون في جبل لبنان .) غير ان الغالبية العظمى من الفلسطينيين كانت ، مثلها مثل الاتراك والمصريين ، من المسلمين السنة ، وقد بدا ارتباطها بالمسلمين بوضوح ، اثناء غزوة نابليون لبلادهم . وحيث انه لم تكن توجد هناك اقلية يمكن حمايتها ، في فلسطين تساءل بالمرستون ما اذا لم يكن ممكننا زرع واحده . »(٨١) وبالرغم من ان اليهود المنتشرين في مختلف ارجاء العالم لم يكن لديهم اي اهتمام ورغبة في الهجرة الى فلسطين ، كما رأينا ، فان بالمرستون ، استلهم التوراة ورؤى العودة الرومانتيكية وراح يفكر فيما اذا امكن « ... استخدام حنين اليهود الى الارض المقدسة لصالح بريطانيا » .(٨١)

وعليه .. فقد كانت المرحلة اللاحقة في تفكير بالمرستون ، ان ينقل تساؤلاته وافكاره الى حيز التطبيق . فقد كتب الى قنصله في القسطنطينية يحثه على منح الحماية اللازمة لليهود . وكعادة

(٨١) Stewart. Desmond, The Middle East: Temple of Janus, Hamish Hamilton, London, 1972, P. 24.

الدبلوماسية البريطانية ، لايفوت بالمرستون أن يضع المسألة كلها بصوره ملتوية ، ليراها الاخرون، كماتريد تلك الدبلوماسية ،على غير حقيقتها . فعودة اليهود الى فلسطين صورت وكأنها ستكون منطلقة من الحرص على مصلحة تركيا والسلطان .. اما بريطانيا فلا علاقة لها بها لامن قريب ولا من بعيد !
قال بالمرستون في رسالته :

« ان تشجيع اليهود على العوده والاستقرار في فلسطين سيكون ذااهمية بينة بالنسبة للسلطان، نظراً الى ان الثروة التي سيجلبونها معهم ، ستزيد من موارد اقاليم السلطان ؛ وان الشعب اليهودي لو عاد بموافقة وحماية السلطان وبدعوة منه ، فانه سيكون كابحاً لأية مخططات شريرة مقبلة لمحمد علي او خلفائه . »(٨٢)

فيما يرد في المقطع الذي يقتبسه يوري افنري من الرسالة في دراسته ، العبارة التالية التي تعكس ما هو اكثر من رغبة لدى بالمرستون بصدد اسكان اليهود في فلسطين ، والعبارة موجهة للقنصل بالطبع :

« ... ويجب علي ان اوعز لسيادتكم بقوة ان توصوا [الحكومة التركية] بان تقدم كل تشجيع عادل ليهود اوربا للعودة الى فلسطين . »(٨٢)

---

(٨٢) افنري ، المصدر السابق ، ص / ٥٦ .

وفي ٢٥ كانون ثاني ، ١٨٥٣ ، أعلن غيورغ هاولر ، الحاكم السـابق لجنوبي اسـتراليا ، في البرلمان الانكليزي قائلا :

« ان العناية الالهية قد وضعت سوريه ومصر في طريق انكلترا نحو المناطـق الاهم في تجارتهـا الاستعمارية الخارجية ، الهند والصين والارخبيل الهندي واستراليا .. ان الاصبع الالهي يشير الى انكلترا ان تعمل بقوة لخلق ظروف ملائمـة في كل من هذين البلدين .. ويد انكلترا يجب ان تجدد سوريا بواسطة الشعب الملائم لهذه المهمة ، والذي يمكن أن تستخدم طاقته دائمـاً وبصورة فعالة ، أي بواسطة الابناء الحقيقيين لهذه الارض ، ابناء اسرائيل . »(٨٣)

ان احداً من الساسة البريطانيين لم يكـن ليخفي ما وراء الرغبة المتأججة التي كانت تستبد بهـم لتوطين يهود العـالم في فلسـطين . وهـذا سايدبوتوم يوضح اسباب تأييده لتلك الدعوة :

« وقد قامت حجتي لارجاع اليهود الـى

---

(٨٣) ايفانوف ، المصدر السابق ، ص / ٣٣ ـ ٣٤ .

فلسطين على الاسس المصلحية البريطانية بشكل بحت ... »(٨٤)

اما القادة الصهاينة ، فانهم ـ برغم كـل الضجيج الـذي اثاروه حول « الوطن القومي » و « محنة اليهود » و « المشكلة الازلية » الخ ... ـ لم يحاولوا ان يخفوا الدور الحقيقي الذي ستلعبه دولتهم المقترحة لخدمة الاستعمار .

يقول هرتزل :

« ان عودتنا التي تنبأ بها الكتاب المقدس ... تشكل ... مصلحة سياسية ملائمة تماماً لتلك الدول التي تبحث عن شيء ما في آسيا . »(٨٥)

ويأتي الكاتب الاسرائيلي المعاصر . يوري افنري ، عضو الكنيست الاسرائيلي ، ليقول ان الحركة الصهيونية « ... كانت مظهراً من مظاهر الاستعمار الغربي في نزعه الاخير . »(٨٦)

هذه نماذج ، وليس كل ما هناك ، مـن

---

(٨٤) اسعد رزوق ، المصدر السابق ، ص / ٢٥١ .

(٨٥) الدكتور العظم ، المصدر السابق ، ص / ١٣٢ ، نقلا عن هرتزبرغ وايفانوف .

(٨٦) من الفكر الصهيوني المعاصر ، مركز الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينيه ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص / ٣٤٠ .

تصريحات واقوال توضح المنبع الاصلي للفكـــرة الصهيونية . ولابد من الاشاره هنا الى ان العديد من قادة الحركات القومية الاوربية ومفكريها مثل غاريبالدي ومازيني والسكرتير الخاص لنابليــون الثالث ، والمفكر الالماني هيردر وغيرهم ، لم يدعوا فرصة تمر دون ان يرفعوا الصلوات للرب كي يزرع حب صهيون في قلوب حفنة من مثقفي البورجوازية اليهودية الصغيرة الشرقية ، ليحققوا من خلال ذلك مطامحهم في بلدان الشرق . وبطبيعة الحال ، فان انتقاء هذه الفئــة مــن اليهود ، لم يــأت بمحض الصدفــة ، وانمــا كان نتيجــة لادراك العقــول الاستعمارية ، ان غير هذه الفئة الطافية على سطح الارض ، والتي لم تكن تملك جذوراً تشدها بأيما تربة ، ما كان بالامكان اقناع اية مجموعة يهودية اخرى بأن فلسطين كانت حقاً المحطة الاخيرة لابناء اسرائيل أو انها كانت وطنهم الحقيقي . كما كان بفعل الامال التي كان يضعها المستعمرون في اليهود الشـــرقيين الذين هم ، كما يقول الاســـتعماري البريطاني ، كوندر ، « عنصر المستقبل بالنسبــة للاستعمار المزدهر . »(٨٧)

غير ان هذا لايعني ، بطبيعة الحال ، ان تلك

---

(٨٧) الدكتور رزوق ، المصدر السابق ، ص / ٤٤ .

الفئة المثقفة من اليهود كانت مجرد آلة بيد الاستعمار . فهذه الفئة كانت لها هي الاخرى مطامحها وتطلعاتها في الانتقال الى درجة اعلى في السلم الطبقي . وكانت الحركة الصهيونية مجالا طبيعياً لتحقيق ذلك بالنسبة لزعمائها الذين صنفهم هرتزل في ثلاث فئات : « بعضهم يستغلني . وبعضهم يحسدني او يخونني ، وفريق ثالث يتخلى عني في اللحظة التي يجد فيها مستقبلا أحسن . »(٨٨) ان فلسطين ، بالنسبة لنماذج كهذه ، كانت بالتأكيد فرصة فريدة . وفي هذا يقول هرتزل : « فقط اولئك الواثقون من انهم سيحسنون من وضعهم هناك سيرحلون ... وهكذا فان العودة ستكون في الوقت عينه صعوداً طبقياً . »(٨٩) بالرغم من ان اسطورة « العودة » التي تشكل واحداً من الاسس الهامة في الفكر الصهيوني ، تخص جميع اليهود الذين هم من نسل ابراهيم (!) ولاتخص باي حال من الاحوال ، فقط ذلك القطاع الفقير البائس الذي يحلم بالصعود الى درجة اعلى في السلم الطبقي !

وهنا ينبغي الا ننسى الدوافع الذاتية التي

---

(٨٨) اليوميات ، ص / ٤٤٠ .

(٨٩) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٢١٣ .

كانت تتحكم بهرتزل ــ الشخصيــة النرجسيــة الطموح ــ المصاب بعقدة العظمة ــ تلك العقدة التي أوحت له مرة انه سمع صوتاً « ... يهتف لليوم الذي سيحكم فيه (الملك هرتزل) . »(٩٠) وبرغم ان تحليل شخصية هرتزل بعيد عن مجال هـــذا البحث ، الا انه قد يكون من المفيد ان نلقي بعض اشارات سريعة يمكن ان تسقط ضوء على جانب اخر من المؤثرات التي ساهمت في وضع اللبنات الاولى لبروز الحركة الصهيونية .

ان هرتــزل الذي لــم يكن يؤمن بالعقيــدة اليهودية حتى انه وضع موسى في صنف « المخادعون الماكرون »(٩١) لم يكن لينسى ماروته له امـــه في طفولته من انه كان ينتمي الى قبيلة بنيامين التي تجري في عروقها « دماء ملكيه »(٩٢) برغم انه ورث عن الحضارة الاوربية ميراثاً ثقافياً تدخل في تركيبه النزعة التشكيكية وروح البحث العلمي . ولعل تلك الحكاية هي التي دفعته الى الاصرار على ان يتعلم اولاده على طريقة الامراء بعيداً عن الاطفال

---

(٩٠) ستيوارت ، المصدر السابق ، ص / ٣٧١ .

(٩١) ستيوات ، نفس المصدر ، ص / ٨١ . (٨٨)

(٩٢) ستيوات ، نفس المصدر ، ص / ٣٩ . (٤٨

الاخرين ، طالما كان يهيؤهم لتولي الملك في مملكته القادمة . كان هرتزل يطلق العنان لأحلام يقظته على نحو غريب ، حتىانه كثيراً ما كانت تختلط عليه الحدود بين الحقيقة والحلم . فمع انه كان يريد لواحد من ال روتشيلد (بعد ان يكسبهم الى جانبه) ان يكون الدوتشي الاول ، غير انه لم يستطع ان يبعد عن ذهنه خاطرة ان يحتل ابنه ، الذي كان يحمل اسماً المانياً وليس يهودياً ، هانز ، منصب الدوتشي في وقت لاحق ،(٩٣) على ان يكون هو مستشاراً له . كما انه لم يستطع مرة ان يحول دون ان تترقرق الدموع من عينه وهو في طريقه الى ميدان السباق في باريس ، حين تراءى « ... له في المعبد المزدحم بزعماء البلاد انه يخاطب ابنه الشاب بعبارات من طراز (ياصاحب السمو ! ولدى الحبيب !) ... ويقدم فرسان هرتزل الدارعون عرضاً مؤثراً للمدفعية والمشاة انطلق في سيره من قصر الدوتشي . »(٩٤) . لقد بلغت عقدة العظمة به حداً جعلته يتصور انه كان اقدس من التوراة . فهو يسجل لنا في مذكراته ماحدث اثناء زيارته للمعبد اليهودي في صوفيا : « وقفت على منبر المذبح .

---

(٩٣) ستيوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢١٦ .

(٩٤) ستيوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢١٦ - ٢١٧ .

ولم اكن واثقاً تماماً كيف أواجه الجمـع دون أن ادير ظهري لقدس الاقداس ، واذا بأحدهم يصيح « لابأســ عليك من ان تدير ظهــرك الى صندوق العهد ، فأنت اقدس من التوراة . كان كثيرون يريدون تقبيل يدي . »(٩٥) ويقول لنا دزمونـد ستيورات : « ... ان زيارة منزل هرتزل تعتبر في الدوائر الصهيونية زيارة لبلاط الملك . »(٩٦) تلخيصاً لكل هذا ، لابأس ان نورد مايذكره ،اليكس بين ، كاتب سيرته ، من ان هرتزل « .. كان يريد النجاح ، والمكانة ، والمنصب ، والشهرة ، وكان يريدها بسرعة . »(٩٧)

هـذا الموقف او البحث عمـا يحب هرتزل ورفاقه من الزعماء الصهاينة أن يتصوروه بانه (مجد مفقود) و (امه ضائعة) ، في فلسطين والنضال من اجل وطن قومي يقودونه هم ، هو الذي حدا بقادة الحركة الى ان يوضحوا منذ البداية بأن « ... من النادر ان يجد رأس المـال الكبير فائدة له هناك ، فيما ستجد البورجوازية اليهودية الصغيرة والطبقة الوسطى سوقاً لمنتجاتها في كل من هذا البلد ، وما

(٩٥) ستيوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢٣٨ .

(٩٦) ستيوارت ، نفس المصدر ، ص / ٢٣٧ .

(٩٧) ستيوارت ، نفس المصدر ، ص / ١١٩ .

يحيطه. »(٩٨) كما يعلن بيربوروخوف الذي يشارك بقية الصهاينة في فهمهم لحقيقة ان الراسمالية اليهودية الكبيرة ، لوجاءت الى فلسطين ، فانها ستحول دون صعودهم طبقياً ، وتجعل احلامهم الكبيرة في ان يصبحوا ، هم أيضاً ، مستعمرين صغار ، أحلاماً ابدية .

غير انه لابد من التأكيد هنا ان هذا الموقف من جانب المنظرين الصهاينة ، وكل ما سبق ان اوردناه في هذا البحث عن موقف البورجوازية اليهودية الكبيرة من الحركة الصهيونية ، لايعني باي حال ، ان هذه الطبقة ظلت محافظة على موقفها السابق وعدائها للصهيونية . فمنذ فترة مابين الحربين ، ونظراً للتطورات الحاصلة على مسرح السياسة الدولية ، وبروز الحركات الفاشية والنازية ، وتنامي حركة التحرر الوطني التي ادت ، في ما بعد الحرب العالمية الثانية ، الى تسارع عملية تفتت النظام الاستعماري العالمي ـ منذ ذلك الوقت ، اتخذت البورجوازية اليهودية ، بوصفها جزء من النظام الراسمالي الاستعماري العالمي ، موقفاً جديداً ، موقف التأييد ، من الحركة الصهيونية ، ومن ثم ، الدولة الاسرائيلية ، بعد ان وجدت فيها

---

(٩٨) هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص / ٣٦٦ .

مايمكن ان يمنحها دماً جديداً قد يؤدي الى تجدد شباب النظام الامبريالي وادامةالوجود الاستعماري في ما اصطلح عليه فيما بعد ـ العالم الثالث .

ان دولة اسرائيل ، هدف الحركة الصهيونية قد برزت الى الوجود لتكون مدخلا جديداً للشرق الاوسط وقاعده استعمارية ، قبل اي شيء اخر . واذا كان ذلك قد تحقق تحت راية (الوطن القومي)، فان هذا لايمنع ان تكون الدولة اليهودية ، كما هي الان فعلا ، سوقاً لتوظيف الرساميل الغربية (المسيحية) وما تنتجه مصانع الغرب من انتاج مدني ؛ وحربي بالدرجة الاولى ، بقدر ماهي كذلك بالنسبة لرأس المال اليهودي ، الذي يسعى ، بوصفه جزء من الراسمالية العالمية ، الى ان يحيل العالم كله ، لو امكن ، الى مسرح يمارس فوقه نشاطاته المختلفة .

ان دولة اسرائيل، هدف الحركة الصهيونية، لم تبرز الى الوجود أبداً لتكون مجردسوق (وطنية) مكرسة للبورجوازية اليهودية . وواقع اسرائيل الراهن يؤيد ذلك . ومن ناحية اخرى ، فانه مثلما تحاول الطبقة البورجوازية اليهودية الغربية ان تحافظ على وجودها عن طريق استغلال الطبقة العاملة (المسيحية) التي تشكل العماد الرئيسي

للانتاج في الغـرب ، فهي تفعل ذلك مـرة اخرى بالنسبة للطبقة العاملة سواء كانت داخل اسرائيل او في اي من دول الغرب الراسـمالي ، او بلدان العالم الثالث .

ومن ناحية اخرى فان رفض غالبية يهـود العالم الهجرة الى اسرائيل ، يؤكد من جديد أن شعار (الوطن القومي) ، كان شعاراً أجوف ، كما يبرهن على ان المشروع الصهيوني قـد اخفق في تحقيق الهدف الاساسي المعلن الذي قامت من اجله الدولة اليهودية ؛ الاوهو تجميع مايسميه الصهاينة (الأمة اليهودية) المبعثرة في الشتات . ان هـذا الفشل ، يؤكد ، من ناحية اخرى ، حقيقـة ان الحركات الاستعمارية الاستيطانية لاتجري بدافع البحث عن قومية ضائعة او وطن مفقود ، وانمـا بدافع السلب والنهب والاستعمار ومن اجل حماية المصالح الاستعمارية ، كما الامر في جنوب افريقيا وروديسيا . والهجرة ، لهذه المناطق ، ومنهـا فلسطين ، ليست في الواقع الانبذاً للانتماء القومي، في سبيل المطامح الاستعمارية . وان افضل صفة يمكن ان تطلق على الكيانات التي تشكل نتيجة مثل هذه الهجرة ، كاسرائيل مثلا ، هي انها مستوطنات

عنصرية (وطائفية بالنسبة لاسرائيل) ، استعمارية في طبيعتها وفكرها عسكرية في طابعها ، وتوسعية في منهجها .

ومن هنا .. فان اعتبار الحركة الصهيونية على انهـا حركة قوميـة تعبـر عن ايديولوجيـة البورجوازية اليهودية ومصالحها ، انما يناقض الاسانيد العلمية والمعطيات والوقائع التاريخيـة المرتبطه بنشوء ونمو هـذه الحركة ؛ كما يناقض حقيقة كون اسرائيل تجمعاً استيطانياً يتخذ له من العقيده اليهودية ، الرابطة الاساسية الوحيده التي تشد اوصاله ، بهدف أن تكون ، اي اسرائيل قاعدة استعمارية متقدمة في المنطقة العربية ، قبـل اي شيء اخر .

صـدر من الموسـوعة الصغيرة

١ ـ العـرب والحضارة الاوربية

د . فيصل السـامر

٢ ـ فلسـفة الفيزيـاء

د . محمد عبداللطيف مطلب

٣ ـ الحقيقة الاشتراكية لحزب البعث العربي الاشـتراكي

عزيز السيد جاسـم

٤ ـ قضـايا المسرح المعـاصر

سـامي خشـبة

٥ ـ الصناعات البتروكيمياوية ومستقبل النفط العـربي

د . محمد أزهر السماك

٦ ـ الثـورة والديمقراطية

صـباح سـلمان

٧ ـ دانتـي ومصادره العربية والاسلامية

عبدالمطلب صالح

٨ ـ الطـب عند العـرب

د . عبداللطيف البدري

٩ ـ انغـولا .. الثورة وابعادها الافريقية

حلمـي شعراوي

١٠ ـ معالجات تخطيطية لظاهرة التحول الحضري

د . حيـدر كمونة

١١ ـ مصـادر الطاقـة

د . سلمان رشيد سلمان

١٢ ـ التـراث العربي كمصـدر في نظرية المعرفـة والابداع في الشعر العربي الحديث

طـراد الكبيسـي

١٣ ـ التقـدم العلمـي والتكنولوجي ومضـامينه الاجتماعيـة

د . نـوري جعفر

١٤ ـ الثقافة والتنظيمات الشعبية

عبدالغني عبدالغفور

١٥ ـ العوامل المحفزة لنمو الدخل القومي

د . كاظم حبيب

١٦ ـ فن كتابة الاقصوصة

ترجمة : كاظم سعدالدين

١٧ ـ الاعلام والاعلام المضاد

صاحب حسين

١٨ ـ استثمار المواد الكيمياوية والعضوية الملوثة للبيئة

د . طارق شكر محمود

۱۹ ـ مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية

د . هاشم الطعان

۲۰ ـ الانسان آخر المعلومات العلميه عنه

ترجمة : كاميران قره داغي

۲۱ ـ كتابة الشعر في المدارس

ترجمة : ياسين طه حافظ

۲۲ ـ من عصر البخار الى عصر الليزر

د . اسامة نعمان

۳۲ ـ الاتصال والتغير الثقافي

هادي نعمان الهيتي

۲٤ ـ المدخل الى الفكر الفلسفى عند العرب

د . جعفر آل ياسين



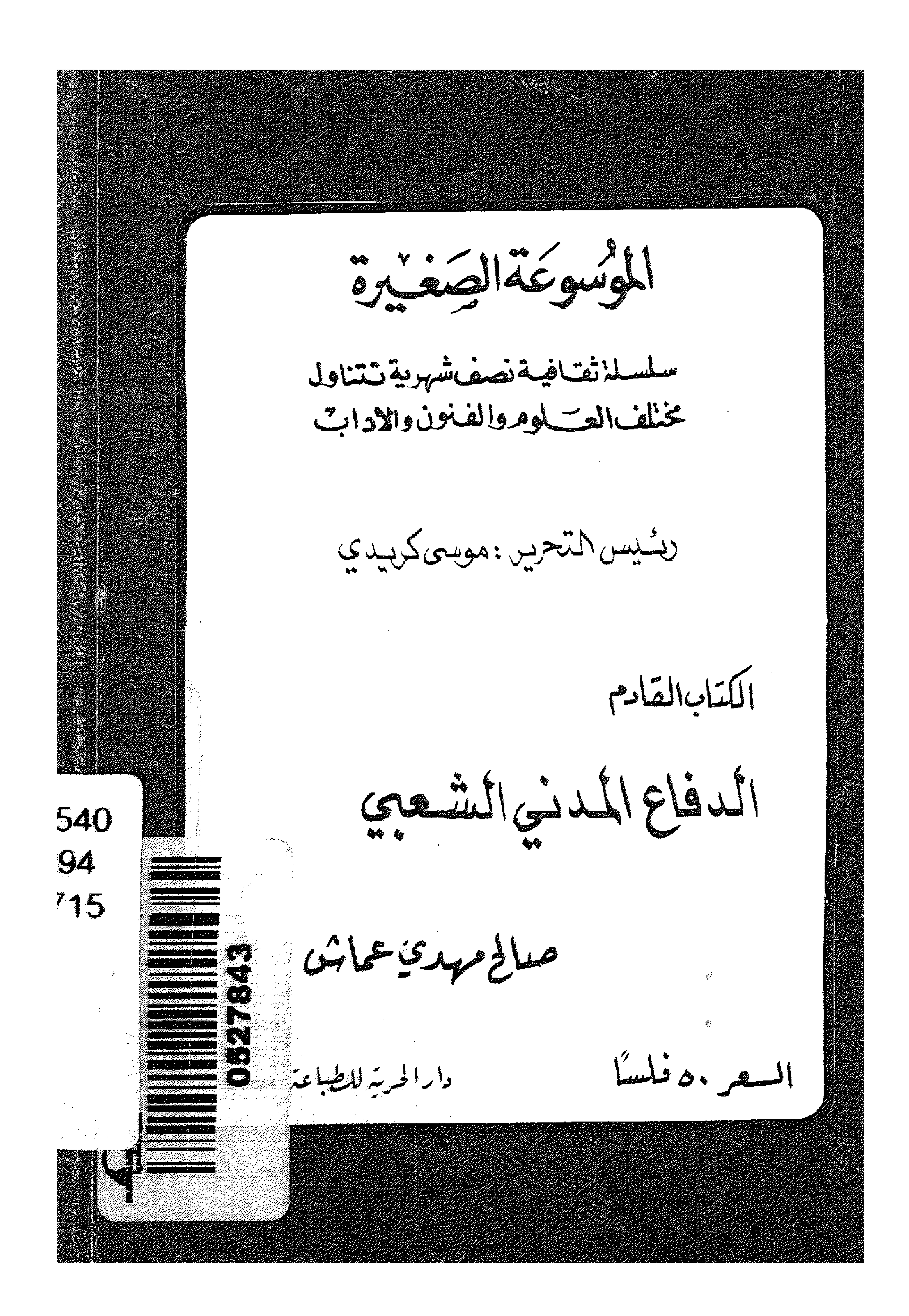
رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
٩٩٩ لسنة ١٩٧٨





دار الحرية للطباعة بغداد ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


الموسوعة الصغيرة
سلسلة ثقافية نصف شهرية تتناول
مختلف العلوم والفنون والآداب
رئيس التحرير : موسى كريدي
الكتاب القادم
الدفاع المدني الشعبي
صالح مهدي عماش
السعر ٥٠ فلساً
دار الحرية للطباعة
540
94
715
05278343